رواية

كباريه

ماجد ملحم

الطبعة الأولى

2025

ArabBook.Com
مكتبة الكتاب العربي

كبارية

رواية

ماجد ملحم

الطبعة الأولى
2025م

ArabBook.Com
مكتبة الكتاب العربي

كبارية

ملحم، ماجد

كبارية، رواية

ط 1 - 2025م

نسخة إليكترونية

Molhem, Majed.

Cabaret : A Novel.

1st Edition – 2025.

Electronic Edition.

First Printing

حقوق النشر

جميع الآراء والأفكار الواردة في هذا الكتاب تُعبّر فقط عن آراء المؤلف
ولا تُعبّر بالضرورة عن آراء ArabBook.Com.

ArabBook.Com © 2025 جميع حقوق النشر والتصميم محفوظة.
لا يُسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه في أي نظام لاسترجاع المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، سواء بالتصوير أو التسجيل أو بأي وسيلة إلكترونية أو ميكانيكية أخرى، دون إذنٍ خطي مسبق من الناشر،
باستثناء الاقتباسات القصيرة في المراجعات النقدية أو الأبحاث الأكاديمية.

وسائل التواصل مع الناشر:
البريد الإلكتروني:
info@arabbook.com

الموقع الإلكتروني:
https://www.arabbook.com

طُبع ونُشر بواسطة ArabBook.Com، 2025م.

1447هـ - 2025م

Copyright Notice

All opinions and ideas expressed in this book are solely those of the author and do not necessarily reflect the views or positions of ArabBook.Com.

© 2025 ArabBook.Com. All rights to publication and design are reserved.
No part of this publication may be reproduced, distributed, or transmitted in any form or by any means, including photocopying, recording, or other electronic or mechanical methods, without the prior written permission of the publisher, except in the case of brief quotations embodied in critical reviews or scholarly works.

Contact Information:
Email: info@arabbook.com
Website: https://www.arabbook.com

Printed and published by ArabBook.Com, 2025.

1447هـ - 2025م

كانت الحرب في نهاياتها غير المعلنة. لا أحد قال إنها انتهت، لكن الناس تعبوا من الانتظار، فقرّروا أن يعيشوا كأنها انتهت.

كان نيسان يمدّ يده إلى المدن المرهقة، يرشّ عليها قليلًا من الضوء والدفء، كما لو أنه يحاول أن يُنسيها ما جرى.

في ذلك الصباح، حملت حقيبتي الصغيرة وغادرت طرطوس نحو دمشق. عمل سريع، لا أكثر. هكذا قلت لمجد، وهكذا أقنعت نفسي.

الطريق بين البحر والجبل طويل، لكن وجود مجد يجعل المسافة خفيفة كأغنية نعرفها عن ظهر قلب.

كانت أغانيه المفضّلة ترافقنا — مزيج من حنين لا يُعرف سببه، وكلمات عن الحب الذي لا يأتي في وقته.

ضحكنا كثيرًا، وتحدثنا أكثر: عن أشياء لا معنى لها، وعن أشياء نخاف أن نعترف بها.

كان مجد من ذلك النوع الذي يُخفي حزنه في النكات، ويغنّي كأنه ينتقم من صمته.

كل شيء في الطريق كان حيًّا: الأشجار المائلة بفعل الرياح، القرى الصغيرة التي تشبه وجوه الناس فيها، السائقون المتعبون، وحتى نقاط التفتيش بدت أقل حدّة ذلك اليوم.

شعرت للحظة أن الحرب نائمة، فقط نائمة، وأننا نمشي على أطراف حلمها.

عند اقترابنا من دمشق، بدأت الرائحة تتغير. الهواء ثقيل، المدينة تتهيأ لليلها القادم.

في الأفق، كانت لافتة "فندق الشام" تلمع مثل وعدٍ قديم.

نظرت إلى مجد، كان يدخن بصمت، وعيناه تلمعان على ضوء الغروب.

لم أكن أعلم أن تلك الرحلة ستكون بداية كل شيء...

بداية الكباريه، وبداية النهاية.

لم يكن مجد ابن بيتٍ فقير، لكنه كان أفقر الناس دفئًا.

بيته كان فخمًا، نوافذه واسعة تطلّ على البحر، لكنّ الجدران باردة، كأنها من حجرٍ عاطفي لا يدفئ أحدًا.

أبوه رجل قاسٍ، لا يرى في الناس إلا خدمًا لغروره.

كان يوزّع الابتسامات على الغرباء، ويختزن غضبه لأهل بيته.

يضحك في المجالس، ويصرخ في البيت.

يرى في أبنائه مجرّد مرآة لصوره الناقصة، فإذا لم تلمع كما يريد، حطّمها.

أما الأم، فكانت ظلًّا باهتًا لامرأة كانت جميلة يومًا.

كسرها زوجها بكلمة، ثم بكلماتٍ كثيرة حتى لم يبقَ منها سوى ابتسامةٍ خجولة تطلّ من خلف الجدران حين ينام الجميع.

كانت تحبّ مجد حبًّا صامتًا، حبّ الأمهات اللواتي يخشين أن يُكشف ضعفهنّ.

وحين كان والده يصرخ، كانت عيناها تقولان كل ما لا تستطيع فمها قوله.

كبر مجد في بيتٍ يملك كل شيء، لكنه بلا روح.

تعلم أن يقف منتصبًا، أن يتكلم بثقة، أن يضحك في وجه الألم، لكنّه لم يتعلّم أبدًا كيف يُشفى.

كان يُشبه حجرًا نُحت عليه الكبرياء ليخفي الشرخ العميق تحته.

أخوه الاكبر كان النقيض الجميل: هادئ، ناعم الصوت، يرى الحياة ببساطة.

وحين أصابه الفشل الكلوي، كان مجد هو ظله في كل المستشفيات.

لم يتركه لحظة، كان الأب والأم والأخ والصديق.

لكنّ الموت لم يكن منصفًا.

حين رحل أخوه، رحل الجزء الوحيد من مجد الذي كان يعرف الطمأنينة.

بعد ذلك، تغيّر كل شيء فيه.

صار يضحك أكثر، يتحدث أسرع، يعيش بعنفٍ غريب.

كأنّه يحاول أن يطرد الموت من داخله بالضجيج.

لم يعد يخاف الليل، بل صار يبحث عنه.

ومن هنا بدأت الحكاية — الكباريه لم يكن مكانًا للمتعة، بل مهربًا من صمتٍ لا يُحتمل.

ما جمعني بمجد لم يكن المصادفة.

ولا كان العمل، ولا حتى تلك الرحلات القصيرة بين المدن.

ما جمعنا كان شيئًا لا يمكن تسميته بسهولة—

ربما هو **الشغف**، وربما هو **الخوف من أن نصبح مثل الباقين**.

كنا نلتقي في الأماكن التي لا يراها الناس: مقهى مهجور في الميدان، أو على سطح بناية نطلّ منها على دمشق النائمة، نراقب أضواءها كما يراقب طفلٌ سرب نجوم.

كنا نتحدث عن الموسيقى، عن المدن التي لم نزُرها بعد، وعن الحكايات التي نريد أن نعيشها قبل أن تموت فينا الرغبة.

مجد كان يؤمن أن الحياة لا تُعاش بنصف قلب.

حين يضحك، يملأ الغرفة.

وحين يحزن، يصمت كمن فقد العالم كله.

كنت أراه يندفع نحو الأشياء بلا خوف، كمن يبحث عن نهايته، لا عن خلاصه.

في تلك الليالي، كنا نشعر أن بيننا وبين الحياة حائطًا من زجاج، نراها بوضوح، نسمعها، نكاد نلمسها، لكننا لا نصلها.

وكان الكباريه في تلك الأيام يشبه الوعد — وعدًا بأننا سنكسر الزجاج، ولو مرة واحدة.

في لحظةٍ من لحظات الصدق النادرة، قال لي مجد وهو ينظر إلى الشارع الخالي:

"كل ما أريده هو أن أعيش بشغفٍ واحدٍ حقيقي... حتى لو أحرقني".

ضحكتُ، وقلت له:

"وأنا؟"

فنظر إليّ مطولًا، ثم قال بهدوءٍ مؤلم:

"أنت تشبهني، لكنك لا تعرف بعد كم هو مكلف أن تعيش بشغف".

تلك الليلة لم نعد إلى البيت.

سِرنا في الشوارع، بلا وجهة، بلا خوف.

وقف مجد أمام بابٍ صغير مضاءٍ بالنيون الأحمر.

كتب عليه" :**كباريه الكروان**."

نظر إليّ وقال بابتسامةٍ غريبة:

"هنا يبدأ الليل الحقيقي".

لم أكن قد دخلت كباريه من قبل.

كانت الفكرة بحدّ ذاتها غريبة، بل شبه محرّمة.

شيءٌ من الخوف، وشيءٌ من الفضول، وشيءٌ ثالث لم أكن أعرف اسمه بعد — مزيجٌ من التحدي والرغبة في أن أرى ما لا يُرى.

قال لي مجد وهو يبتسم تلك الابتسامة التي لا تُقاوم:

"تعال... ندخل".

سألته وأنا أراقب الأضواء المتراقصة على الباب:

"متأكد؟"

فقال بثقةٍ غامضة:

"ثق بي".

كانت كلماته كالسحر.

دخلت بعده دون تردّد، كمن يُلقي بنفسه في مغامرة لا يعلم كيف ستنتهي.

الجو في الداخل كان غريبًا، غريبًا إلى حدٍّ يصعب وصفه.

الضوء خافتٌ ومتعدد الألوان، يغيّر ملامح الناس كل لحظة.

رائحة الدخان كثيفة، تختلط بالعطر الرخيص والعرق والكحول، وتغلف المكان بطبقةٍ من الوهم.

ضحكات النساء تصعد من الزوايا كأغانٍ مكسورة، وضحكات الرجال تهبط كصفعاتٍ على الطاولات.

صوت المغنّي الشعبي يرتفع من المنصّة، يصرخ أكثر مما يغني، وكأن الليل كلّه يحاول إثبات أنه حيّ.

كان مجد يمشي بثقةٍ غير مبرّرة، بينما كنت أنا أراقب كل شيء بعينين مندهشتين.

استقبلنا **مدير الصالة** بحرارةٍ مبالغٍ فيها، انحنى قليلًا وصافحنا بطريقةٍ تليق بالملوك.

لم أفهم لماذا، ولا من أين يعرفنا.

سألت نفسي بصمت:

"هل يعرفني؟ أم أن هذه طريقته مع الجميع؟"

كانت تلك اللحظة أول خيط من خيوط الجذب — أول مرة أشعر أن شيئًا ما، أو أحدًا ما، يريدني أن أبقى.

جلسنا إلى طاولةٍ قريبة من المسرح.

كنت أحدّق في الوجوه، في العيون التي تضحك دون فرح، في الأيادي التي تتشبث بالكؤوس كأنها طوق نجاة.

كل شخصٍ هناك كان يبحث عن شيء: نسيان، انتقام، أو ربما مجرّد إثبات أنه ما زال حيًّا.

الموسيقى الصاخبة جعلتني أرتاب في نفسي، كأن المكان يُخفي وراء إيقاعه شيئًا أكبر.

قال مجد وهو يلوّح للنادل:

"لازم نشرب شي قبل ما نقعد هون. مافي حدا بيقعد من غير ما يشرب".

ابتسمت بخجل، ثم نظرت إليه.

كنت أعرف أن مجد **لا يشرب الكحول**، وعدًا قطعه لأخيه قبل أن يموت.

لكنه لم يمنعني.

طلبت كأس بيرة، ثم آخر، ثم ثالث.

كنت أضحك دون سبب، وربما كنت أبكي دون أن أدري.

شيءٌ في المكان كان يُمسك بي من الداخل، يشدّني نحو عمقٍ لا قرار له.

في تلك اللحظة، لم أكن أعلم أن هذا الليل لن ينتهي...

وأن الكباريه لن يكون مجرّد مكان، بل **حياة كاملة مقلوبة رأسًا على عقب**.

كانت الليلة ماجنة بكل ما في الكلمة من معنى.

النساء في المكان نصف عاريات، يلمعن تحت أضواءٍ متغيرة لا ترحم التفاصيل.

عمليات التجميل واضحة على الوجوه، كأنها أقنعة باهتة تحاول أن تقنع نفسها بالجمال.

ابتساماتٌ عريضة، هوليودية الشكل، لكنّها خالية من الدفء — ابتسامات مصنوعة للبيع.

كانت الفساتين لامعة ورخيصة في آنٍ واحد، مثل واجهات المحلات التي لا تخدع إلا العابرين.

كل شيء في تلك الليلة كان يتحدث بلغة الجسد، بلغة السوق، بلغة الليل الذي لا يعرف الخجل.

حتى العطور كانت فجة، تمتزج مع رائحة الكحول والدخان لتكوّن هواءً أثقل من أن يُتنفس.

لم أكن أجرؤ على النظر طويلاً.

كان التمعّن في الوجوه كافيًا ليكشف ما وراءها—

ذلك التعب الخفي في العيون، الخوف المقنّع بالضحك، الحاجة المغلّفة بالترف.

واحدةٌ منهنّ اقتربت بخفة، جلست على حافة الطاولة وقالت بصوتٍ ناعمٍ فيه شيء من الحساب:

"ذاك المبلغ لقاء الجلوس معك، وذاك المبلغ إن أردت أن أرافقك إلى الفندق".

كانت كلماتها عادية بالنسبة للمكان، لكنها سقطت عليّ كصفعةٍ باردة.

شعرت أن شيئًا في داخلي يُكسر ببطء، أنني أرى العالم من زاوية جديدة—

عالمٍ لا يعرف الحياء، ولا ينتظر المعنى.

مجد كان يراقبني بصمت، عيناه تلمعان بتلك النظرة الغامضة التي تجمع بين السخرية والشفقة.

ابتسم، رفع كأسه، وقال بنبرةٍ خفيفة:

"الجنون... أليس أجمل ما في هذه الحياة؟"

لم أجب.

كنت فقط أسمع الموسيقى ترتفع، وأرى الناس يضحكون كأنهم في جنازةٍ جماعية لا يعلمون أنهم أبطالها.

في تلك اللحظة، أدركت أنني دخلت الليل حقًا،

ولم أعد أعرف كيف يمكن الخروج منه.

انت شمس الصباح تشرق ببطء، كأنها تتسلّل خجولة إلى مدينةٍ ما زالت سكرى.

غادرنا الكباريه أنا ومجد بخطواتٍ متثاقلة.

الهواء البارد ضرب وجهي فشعرت كأنني أستيقظ من حلمٍ متسخ.

المدينة في الفجر تبدو كجسدٍ منهك بعد ليلٍ طويلٍ من الخطيئة.

الطرقات فارغة، والمحالّ مغلقة، وحده الضوء الرمادي كان يفضح كل شيءٍ تركناه وراءنا.

في الفندق، لم أستطع النوم.

تمددت على السرير، لكن رأسي كان يعجّ بالأصوات والوجوه.

ضحكات النساء، رائحة العرق والعطر الرخيص، الأجساد التي تتحرك مثل سلعٍ في سوقٍ مظلم.

كانت الصور تتراقص أمامي، لا أستطيع طردها.

أغمضت عينيّ، لكنّ الكباريه ظلّ يلاحقني في العتمة.

حين استيقظ مجد، نظر إليّ وقال وهو يتمطّى:

"ليش ما نمت؟"

قلت له بصوتٍ متعب:

"ما قدرت... صور النساء العارية في سوق النخاسة ذاك ما فارقتني أبداً".

ضحك بصوتٍ عالٍ، ضحكةً حقيقية هذه المرة، فيها شيء من المرارة واللامبالاة.

ثم قال وهو ينهض متجهًا إلى النافذة:

"هيه... خلصنا من الليلة، وعندنا سفرة إلى طرطوس".

سافرنا في اليوم نفسه.

الطريق بدا أطول هذه المرة، بلا أغاني، بلا حماس.

عدنا إلى قواعدنا القديمة:

العمل، المنزل، الروتين اليومي الذي يبتلعنا ببطء.

لكنّ شيئًا في الداخل كان قد تغيّر.

لم نعد نحن كما كنّا قبل تلك الليلة.

كانت الأيام تمرّ سريعًا، متشابهة كصفحات دفترٍ باهت، حتى جاء ذلك الاتصال.

أحد المتعاملين قال إنه يريد توقيع عقدٍ جديد في دمشق.

ما إن سمعت اسم المدينة، حتى شعرت بارتعاشةٍ خفية في صدري، كأن شيئًا نائمًا في داخلي استيقظ فجأة.

سعادة غريبة غمرتني، لم أفهمها، ولم أُرد أن أفهمها.

رفعت الهاتف واتصلت بمجد، قلت له بصوتٍ متحمس:

"بكرا إلى دمشق".

صمت لحظة، ثم قال بهدوءٍ مريب:

"رجعنا؟"

قلت:

"رجعنا".

لم أكن أعلم حينها أن تلك الرحلة الثانية ستكون أخطر من الأولى،

وأن الكباريه لا يفتح بابه مرتين إلا لمن قرّر أن يبقى فيه إلى الأبد.

ذهبنا.

لكنّ هذه المرة كان كلّ شيء مختلفًا.

الثياب أجمل، النقود أكثر، والنية أوضح.

في المرات السابقة كنا نذهب ليومٍ واحد ونعود في اليوم التالي، أما الآن فالأيام صارت أطول،

والليالي أكثر جرأة.

كأن الكباريه فتح فينا بابًا لا يُغلق بسهولة.

في الصباح، كان مجد يقف أمام المرآة.

قمصانه البيضاء مصقولة بعناية، حقيبة سفره الصغيرة جاهزة،

وجهه يشبه وجه مسافرٍ إلى مدينةٍ نائية لا يعلم إن كان سيعود منها.

قال لي بابتسامته التي تخفي أكثر مما تقول:

"بس هالمرة غير... بدنا نغير المكان".

ركبنا السيارة.

الموسيقى الصاخبة كانت تملأ الطريق، ومجد يغني بمرحٍ مصطنع،

أما أنا فكنت أراقب الجبال الرمادية التي تبتلع الشمس في طريقنا نحو دمشق.

كان لنا "بروتوكول" لا يتغير:

نتوقف أولًا عند محطة الوقود المعهودة، نعبي البنزين، ثم نكمل إلى **النبك**.

هناك، في مطعم الجلاب، كنا نأكل **صينية اللحمة** التي نحفظ طعمها كما يحفظ طفل نكهة أول حلوى في حياته.

ثم نتابع الطريق،

وعندما نصل إلى **نزول التنايا**، نشم هواء دمشق يأتينا من بعيد—

مزيج من غبارٍ وتاريخٍ ورائحة البنزين، لكنه بالنسبة لنا كان رائحة حياة أخرى.

عند **فندق القيصر**، كنا نعرف أننا وصلنا.

ذاك الفندق سيحمل لاحقًا من الذكريات ما لا يُحتمل،

لكنه في تلك اللحظة بدا مجرد محطة أخرى من محطات اللهو.

نزلنا، أخذنا حمامًا طويلًا، ثم بدأنا نرتدي ثيابنا ببطء.

لو رآنا أحد لظنّ أننا ذاهبان إلى **عرسٍ فاخر**، لا إلى كباريه.

قال مجد وهو يرتدي عطره المفضل:

"خلينا ناكل شي قبل ما نروح، أي سندويشة وبعدين منكمّل".

خرجنا، تناولنا ساندويشاتٍ على عجل، ثم قاد السيارة نحو **باب شرقي**.

كان المكان الجديد يختلف عن السابق — أكثر فخامة، أكثر غرابة.

يقع تمامًا عند القوس الحجري القديم، في النقطة التي وقف فيها ذات يوم **مايك الشرقي**،

بطل رواية يعرب العيسى وانطلق بعدها ليصبح من أغنياء العالم.

ضحك مجد وهو يشير إلى القوس قائلاً:

"شايف؟ يمكن دورنا اليوم"!

لم أجب.

كنت أنظر إلى الباب الحجري،

وأفكر أن كل بابٍ في هذه المدينة يقود إلى حكاية،

لكن باب الليل وحده... لا يُغلق أبدًا.

دخلنا المكان وكأننا أول الفاتحين.

الساعة لم تكن قد تجاوزت منتصف الليل، وكان الكباريه ما يزال يتثاءب من نومه.

المكان صغير، لكنه مضاء بما يكفي ليُخفي أكثر مما يُظهر.

الاستقبال كان مبالغًا فيه، كأننا ضيوف شرف في ليلةٍ استثنائية.

أجلسونا على طاولةٍ في المنتصف — موقع يسمح لنا أن نرى الجميع، وأن يرانا الجميع.

طلبت **بيرة**، وطلب مجد **شايه المعتاد**.

لم يتخلَّ عن عادته تلك رغم كل ما حوله،

كأنه يتمسك بشيءٍ صغيرٍ من عالمه القديم، خوفًا من أن يذوب تمامًا في هذا الجديد.

كانت المطربة الأولى تصعد إلى المسرح — امرأة في أوائل الثلاثينيات، جميلة لكن عادية.

صوتها ليس سيئًا، لكنه بلا روح.

عرفتُ لاحقًا أن "نمرة الافتتاح" دائمًا تكون هادئة؛ فالجمهور لم يأتِ بعد،

والليل لا يبدأ في الكباريه قبل الساعة الواحدة.

قال لي مجد وهو يراقبها بعينٍ فيها شرارة لم أرها منذ زمن:

"انظر يا أخي... جميلة، أليس كذلك؟"

كان ينظر إليها بشغفٍ صادق، يسمع صوتها بقلبه لا بأذنه،

كأنها تعوّضه عن كل النساء اللواتي مررن بحياته وتركْن وراءهنّ فراغًا.

وبما أننا الوحيدين في المكان تقريبًا، التفتت إلينا وسألت بصوتٍ مرح:

"شو بتحبّوا نغني؟"

قلت دون تردد:

"فيروز".

توقّفت لحظة، نظرت إليّ بدهشةٍ طفيفة، ثم قالت وهي تضحك:

"فيروز؟ هون؟"!

ضحك العمّال، حتى النادل الذي كان ينظّف الطاولة المجاورة رفع رأسه بدهشة.

بدت الكلمة نفسها غريبة على المكان، كأنها زائرة من عالمٍ آخر.

ثم أضافت المطربة بابتسامةٍ ساخرة:

"تكرم... فيروز"!

وبدأت تغنّي.

كان صوتها بعيدًا كل البعد عن فيروز،

والمكان أبعد أكثر عن صباحات الجبل أو شرفات المقاهي الدمشقية التي وُلدت فيها أغانيها.

لكنّ شيئًا في تلك اللحظة ظلّ حقيقيًا:

ذلك الحنين الذي عبرني كريحٍ باردة وسط دخان المكان،

حين سمعت اسم **فيروز** يُقال هناك،

في أعمق نقطةٍ من ليلٍ لا يعرف النور.

نظرت إلى مجد، كان يبتسم.

ربما فهم ما كنت أشعر به، وربما لم يفهم شيئًا.

لكني أدركت أننا — رغم كل هذا الضجيج—

ما زال فينا شيء صغير يرفض أن يتسخ.

انتهت وصلة المطربة الأولى وغادرت المسرح بخطواتٍ باردة،

ومع غيابها بدأ المكان يستيقظ فجأة.

كأن الليل قرّر أن يبدأ لتوّه.

الناس بدأوا يتوافدون:

نساء بألوانٍ صارخة، ورجال بوجوهٍ ثقيلة تلمع من العرق والعطور.

الطاولات امتلأت بسرعة، والموسيقى ارتفعت، وصوت الضحك صار كالمطر على زجاجٍ مكسور

— لا معنى له، لكنه لا يتوقف.

ظهر المطرب الثاني، أكثر حضورًا، أكثر حركة، أكثر ثقة.

صوته قوي، لكن ما يجذب في أدائه ليس الغناء بحدّ ذاته، بل تلك الطاقة الفوضوية التي تملأ المكان.

يتنقّل بين الطاولات كراقصٍ يعرف جمهوره واحدًا واحدًا،

يرفع الكأس، يحيّي الزبائن، يضحك، ثم يصرخ بفرحٍ مصطنع:

"يلا الليلة سهرتنا نار"!

كنا أنا ومجد نجلس كما نحن — بثيابٍ نظيفةٍ مرتّبةٍ أكثر مما يجب.

مجد بقميصه الأبيض المكويّ بعناية، وأنا ببذلتي التي تصلح أكثر لحضور حفلةٍ لكاظم الساهر منها للجلوس في كباريه.

مشهدان في غير موضعهما.

كانت النساء يراقبننا بفضولٍ خفي،

تلك النظرات السريعة التي تحمل السؤال دون أن تُقال:

"مين هدول؟ شو جايين يعملوا هون؟"

حتى العامل الذي مرّ قرب طاولتنا نظر إلينا باستغراب،

كأننا ضيفان تائهان دخلا المكان الخطأ.

مجد يبتسم، يرتشف شايه بخفة، بينما أحتسي البيرة وأحاول أن أبدو طبيعيًا.

شعرت للحظة أننا نُعرض على المسرح مثل بقية الفقرات—

قطعتان غريبتان في لوحةٍ من الفوضى.

الكل يرقبنا، ونحن نرقب الجميع،

لكن لا أحد يعرف بالضبط من هو المتفرج... ومن هو العرض.

في وسط تلك الفوضى الخلّاقة،

وبين ضحكاتٍ عالية وموسيقى تمزّق الهواء،

تقدّم نحونا **مدير الصالة**.

رجل ممتلئ، يلبس بدلة لامعة أكثر من اللازم، وعطرًا قويًا يسبق حضوره بخطوة.

اقترب من طاولتنا، انحنى قليلًا، وقال بصوتٍ عالٍ كي يطغى على الضجيج:

"شو شباب؟ بدكم رفقة؟"

لم أفهم في البداية.

نظرت إليه باستغراب، فابتسم ابتسامةً واسعة تُخفي تحتها شيئًا آخر، ثم أضاف:

"يعني... بدكم نساء تقعد معكم؟ عندي مينو كبير، اختاروا اللي يعجبكم".

صُدمت من بساطة طرحه، من تلك اللهجة التجارية الباردة.

كأن الأمر لا يتعلق ببشر، بل بخيارات في قائمة طعام.

نظرت إلى مجد، فابتسم بخفة وقال لي بصوتٍ منخفضٍ كخبيرٍ يشرح لزميله الجديد:

"هاد... بياع البنات".

ضحكته كانت قصيرة، لكنها مؤلمة،

فيها سخرية من العالم ومن نفسه في آنٍ واحد.

شعرت أن الهواء في المكان تغيّر فجأة.

كل شيء من حولي صار يبدو أوضح، أقسى، أكثر قذارة.

رأيت الوجوه نفسها التي كانت قبل دقائق تضحك وترقص،

لكنها الآن صارت وجوهًا أخرى — وجوهًا تبحث عن صفقة، لا عن لحظة دفء.

كانت الفكرة قاسية عليّ،

أن يتحوّل الليل إلى **سوق نخاسةٍ حديثة**،

فتيات بعمر الورد يجلسن على الطاولات ينتظرن من يشتري لحظاتٍ من حضورهنّ،

كأن الجمال نفسه صار عملةً في مزادٍ كبيرٍ بلا روح.

لم أجب المدير، ولم أنظر إلى القائمة التي مدّها نحونا.

كنت فقط أحدّق في الأرض،

وأحاول أن أفهم كيف يمكن أن تُباع البراءة بهذا الشكل،

وكيف نضحك نحن بينما العالم ينهار ببطءٍ على طاولتنا.

قلت له بهدوءٍ حازم:

"لا أريد".

ابتسم مدير الصالة وابتعد كأنه لم يسمع شيئًا.

أما مجد فالتفت إليّ وقال بنبرةٍ عادية تمامًا، كمن يشرح بديهية:

"عادي يا أخي، بكل كباريه في بياع بنات... ليش مستغرب؟"

حاولت أن أستعيد توازني، أن أُقنع نفسي أن هذا كله مجرد تجربة عابرة.

صعد مطرب جديد إلى المسرح، صوته أجمل، حضوره أصدق،

وغنّى بصوتٍ عميقٍ كأنه يأتي من مكانٍ آخر،

بينما كنت أحتسي بيري ببطءٍ وأراقب وجوه الناس وقد بدأت تمتزج بالليل.

قال لي مجد:

"شوي وراجع".

غادر بسرعة، وظننت أنه خرج ليكلم أحدًا أو ليهوّي رأسه.

مرّت نصف ساعة قبل أن يعود،

كان يضحك من قلبه، ضحكة صافية غريبة وسط كل هذا الزيف.

سألته:

"وين كنت؟"

قال وهو يجلس ويشعل سيجارة:

"رحت على الجامع المقابل... أصلي الفجر".

نظرت إليه بدهشةٍ لم أستطع إخفاءها.

كان مجد، رغم كل شيء، **لا يترك صلاة** منذ وفاة أخيه،

يصلي الفروض الخمسة كمن يحاول أن يوازن كفّتيه في ميزانٍ مختل.

ضحك وقال وهو يروي المشهد:

"دخلت الجامع... كل الناس عم تطلع فيني!

لباسي، ريحة عطري، نظراتهم كانت غريبة...

قلت لنفسي: هون غير مقبولين، ولا هونيك؟"

ضحكنا طويلًا.

ضحكًا يشبه البكاء، ضحكًا يعرف جيدًا أنه مرّ من جسرٍ بين الجنة والجحيم.

في تلك اللحظة شعرت أن دمشق كلّها تختصر مجد.

مدينةٌ ماجنةٌ بتصوّف،

تجمع في ليلها ما تهدمه في نهارها،

وتغفر في الصباح ما ارتكبته في المساء.

دمشق كانت حالة لا يمكن وصفها—

امرأةٌ تصلي بعد الرقص،

وتضحك وهي تبكي،

وتناديك كي تضيع فيها... ثم تغفر لك لأنك أضعت نفسك حقًا.

خرجنا عند السادسة صباحًا.

كان الفجر في بدايته، والمدينة تستيقظ على وجهين مختلفين:

من جهة، أولئك الخارجون من النوادي، بملابس السهر والعطور الثقيلة التي فقدت معناها.

ومن الجهة الأخرى، عمالٌ يمضون إلى يومهم الشاقّ، وجوههم متعبة لكنّها صادقة.

كلّ شيءٍ في دمشق كان مزدوجًا،

كأن المدينة خُلقت لتجمع الليل والنهار في كفٍّ واحدة.

ركبنا السيارة متجهين نحو الفندق القريب.

وفي الطريق، لفت نظرنا محلّ صغير يبيع الفول والحمّص،

كان مزدحمًا بالعمال والباعة والطلاب.

ضحك مجد وقال:

"فطور الملوك بعد سهرة من الكباريه"!

دخلنا، جلسنا على طاولةٍ معدنية، وأكلنا بشهيةٍ غريبة،

كأننا نكفّر عن ذنوب الليل بطبقٍ من الفول الساخن.

ضحكنا كثيرًا،

ضحكًا صادقًا هذه المرّة، بلا أقنعة ولا تصنّع.

حين وصلنا الفندق،

غرقنا في نومٍ عميق كأننا ننام بعد معركة طويلة.

لم نستيقظ إلا عند الرابعة عصرًا.

وقفت أمام المرآة، أنظر إلى وجهي المرهق.

لم يكن الليل وحده ما أنهكني،

بل ذلك الصراع الداخلي الذي بدأ يتشكّل في داخلي.

كنت أشعر **بغرابتي قبل أن أشعر بغرابة ما يحدث حولي** —

كأنني الغريب في المكان وفي نفسي معًا.

استيقظ مجد، أعدّ قهوته، وجلسنا نضحك ونتحدث بتفاصيل الليلة الماضية.

كان هو يتحدث عن المطربة التي غنّت فيروز،

وأنا أستعيد مشهد "بياع البنات" وصوته البارد.

ضحكنا على التناقض الذي يجمعنا ويُبعدنا في الوقت نفسه.

قال مجد وهو يرفع فنجانه:

"اليوم باقون بدمشق أم عائدون؟"

قلت دون تردّد:

"باقون".

ضحكنا ضحكة طويلة،

ضحكة تشبه اعترافًا مؤجّلًا بأننا وقعنا في فخّ المدينة.

خرجنا بعد الغروب نمشي في شوارع دمشق،

نجتاز الأزقة والأسواق القديمة،

نشتري ثيابًا جديدة وكأننا نُهيّئ أنفسنا لولادةٍ أخرى في ليلٍ جديد.

كانت دمشق في تلك اللحظة ساحرة،

مدينة لا تُقاوم،

تغريك لتبقى فيها، حتى لو كانت تسرقك ببطء.

كانت **كلّ شيء... وفي الوقت نفسه لا شيء.**

بعد سنواتٍ من الغربة والترحال والانكسارات،

اكتشفت أنّ هذه المدينة تُصاب بها كما تُصاب بمرضٍ نادر:

تعيش معك،

تتعبك،

ولا شفاء منها أبدًا.

دخل الليل سريعًا تلك المرة، كأنه متواطئ معنا،

يستعجل الخطى ليفتح لنا أبواب الكباريه من جديد.

بعد عشاءٍ سريع عدنا إلى الفندق،

بدّلنا ثيابنا القديمة بأخرى جديدة،

كأننا نستعدّ لحفلٍ أكثر من استعدادنا لليلةٍ عابرة.

كان لمجد عادته الغريبة التي لا يتخلى عنها:

يرشّ **عطر العود** مباشرةً على جسده،

ثم يضيف فوقه بضع رشّاتٍ من **عطره المفضّل**.

سألته يومها مبتسمًا:

"ليش هيك؟"

فقال وهو يربّت على كتفه بثقةٍ خفيفة:

"هي سرّ المصلحة... جرّبها".

جربت.

ومنذ تلك الليلة، صار ذلك الطقس روتينًا متلازمًا في حياتي—

مزيجٌ غريبٌ وطويل الأمد بين رائحة العود التي تسكن الجلد،

ورائحة السوفاج التي تظلل الثياب.

كانت توليفة الليل التي لا تخطئها ذاكرة.

لبسنا، جلسنا ننتظر الوقت الذي يمرّ ببطءٍ قاتل في الانتظار،

ثم يفرّ بسرعةٍ خاطفة حين يبدأ الليل فعليًا.

عندما صارت الساعة **الواحدة إلا ربعًا**،

نظر مجد إليّ وقال بابتسامته التي تشبه طفلًا متحمّسًا:

"هيا... أريد أن أكون أول الجالسين لما تطلع مطربتي المفضلة".

ضحكنا، وخرجنا.

الطريق إلى الكباريه صار مألوفًا،

حتى حارس الباب صار يحيينا وكأننا من زبائن البيت.

كالعادة، كنا أول الواصلين.

المكان ما زال نصف فارغ، الأضواء خافتة، الموسيقى ناعسة.

لكنّها — المطربة — كانت هناك.

حين دخلنا، نظرت نحونا تلك النظرة التي تجمع بين الدهشة والاعتياد،

كمن ينتظر أحدًا يعرف أنه سيأتي.

جلسنا في مكاننا المعتاد.

بدأت تغني بصوتها الذي لم يكن جميلًا،

لكنه بالنسبة لمجد بدا كأنه صوتٌ من عالمٍ آخر.

راح يتمايل على أنغامها بخفة،

كأنه يرقص مع فكرةٍ في رأسه لا مع الموسيقى.

نظرت إليه وابتسمت.

كنت سعيدًا به،

بهذا الفرح البسيط الذي عاد يسكن وجهه ولو لليلةٍ واحدة.

في تلك اللحظة، شعرت أن مجد — رغم كل شيء—

ما زال يملك قلبًا قادرًا على أن يحبّ حتى وسط الخراب.

جاءنا فجأة، كما يفعل دائمًا،

ذلك الرجل الذي سماه مجد منذ اللقاء الأول **"بياع البنات"**.

اقترب بخطواتٍ واثقة، وانحنى قليلاً نحونا مبتسمًا ابتسامة لا تشبه الترحيب، بل المساومة.

قال بصوتٍ مدهونٍ بالنعومة والمكر:

"كيفكم اليوم؟ والله انتو منوّرين المحل"!

ضحكنا مجاملة، لكن صوته تغيّر في اللحظة التالية،

صار أعمق، أثقل، يحمل نبرة البائع حين يوشك أن يغلق صفقة.

قال:

"عندي إلك شي حلو كتير... فتاة جديدة، ما تورطت بالعالم هون بعد، بتليق فيك".

لم أتفاجأ كما في المرة الأولى،

ولم أحاول أن أبدو مصدومًا.

كنت أسمع كلماته كمن يسمع صدى بعيد لحلمٍ انكسر.

قال مجد بهدوءٍ متسلٍّ، كمن يراقب مشهدًا من فيلمٍ يعرف نهايته:

"ها هو بياع البنات رجع يشتغل".

لكنّ الرجل لم يلتفت إليه،

تابع بصوتٍ خفيضٍ يحمل سخريةً خفية:

"السيستم هيك... بتقعد معك بالحفلة بس،

وانت بتعطيها يلي بدك، وأنت كرمني"

كانت **مساومة قذرة**،

لكنها قُدّمت بثقةٍ تجعل القذارة تبدو كجزءٍ طبيعيٍ من المكان.

ولأول مرة، لم أقاوم.

ربما لأن المقاومة لم تعد ممكنة،

وربما لأن الفضول كان أقوى من المبادئ.

قلت له بصوتٍ جازمٍ غريب حتى على نفسي:

"حسنًا... أين هي؟"

ابتسم،

ثم اختفى بين الطاولات كمن يعرف أن الصفقة أُبرمت.

بعد دقائق، ظهرت هي.

كانت فتاةً في غاية الجمال — طويلة،

تلبس فستانًا أسود قصيرًا يُبرز بساطة الجمال قبل رخص العرض.

وقفت إلى جواري وقالت بخجلٍ محسوب:

"مرحبًا".

وقفتُ أنا ومجد لنسلّم عليها.

جلست إلى جانبي، ورائحتها تحمل شيئًا من النظافة النادرة في هذا المكان.

نظر إليّ مجد وضحك،

ضحكة خفيفة فيها سخريةٌ ودهشة، وقال:

"إي ها... هلق صرت من روّاد الكباريه"!

ضحكنا معًا،

ضحكًا طويلًا، عاليًا، يشبه الضحك الذي يخرج من قلبٍ يعرف أنه **لم يعد بريئًا**،

ضحكًا يخلط الخجل بالمتعة، والندم بالفضول.

في تلك اللحظة أدركت أن الليل ابتلعنا تمامًا،

ولم نعد نحن الضيوف فيه،

بل **أحد فصوله**.

كانت في أواخر العشرينات.

فتاة طويلة، بشعرٍ أسود ينسدل على كتفيها، وبشرةٍ بيضاء تشعّ تحت الضوء الأحمر الخافت.

بالمقاييس العادية كانت جميلة،

لكنّ جمالها كان يحمل شيئًا من التعب،

تلك الهشاشة التي تجذبك لأنك تشعر أنها قابلة للانكسار في أي لحظة.

جلست إلى جانبي، وقالت بلا تردد:

"فاتن".

ثم أخرجت من حقيبتها **باكيت دخان سلم**،

أشعلت سيجارةً بيدٍ ثابتة،

وأطلقت أول سحابة دخانٍ كأنها تُعلن بداية حكايتها.

قالت وهي تحدّق في البعيد:

"أنا من مدينة... خرجت منها أنا وزوجي وطفلي الوحيد أيام الحرب.

هربنا لمدينة ثانية... بعد فترة طلقني، وركب البحر متل غيره،

هرب لدول الخلاص...

بقيت أنا وابني، عنده مرض ال توحّد، بلا بيت، بلا معيل، بلا حدا.

لهيك... اشتغلت هيك".

كانت تتحدث وكأنها تعتذر للعالم عن وجودها.

في كل كلمةٍ ألم، وفي كل دمعةٍ غير مرئيةٍ تبرير.

كنت أستمع إليها وأشعر أن شيئًا في صدري ينكسر.

لكن مجد انحنى نحوي، وقال بصوتٍ خافتٍ لا تسمعه هي:

"لا تصدّق كل شي... كذابات".

نظرت إليه بصمت، ثم التفتُّ نحوها وقلت:

"شو بتشربين؟"

قالت دون تردد:

"ويسكي".

أشرت للنادل، وطلبت **لترًا من الويسكي**.

صرنا نشرب أنا وهي ببطء، كأننا نحاول إذابة المسافة بيننا في الكأس.

نظرت إليّ فجأة وقالت بابتسامةٍ مرهقة:

"صاحبك ما بيشرب؟"

قلت لها:

"لا".

لكن مجد، بخفةٍ مفاجئةٍ، قال وهو يضحك:

"بشرب... بس بشرط"!

سألته:

"شو الشرط؟"

قال وهو يغمز نحو المسرح:

"إذا المطربة إجت وقعدت معي"!

انفجرنا بالضحك،

ضحكة عالية وسط ضجيج المكان.

لكن فاتن اقتربت منّي،

همست في أذني بصوتٍ دافئٍ وهادئ:

"بخلّيها تقعد معو".

التفتُّ إليها مدهوشًا:

"بتعرفيها؟"

ضحكت وقالت:

"كلنا منعرف بعض".

ثم أضافت بواقعيةٍ مرّة:

"بس... بتاخد مصاري".

قلت لها دون تفكير:

"ما في مشكلة".

غابت لدقائق، ثم عادت وهي تضحك،

ضحكتها فيها نصرٌ صغير، وقالت:

"تمّت العملية بنجاح"!

وفي خضمّ الضحك وصخب الملهى،

انطفأت الأضواء فجأة، وارتفع تصفيقٌ خفيف.

وعلى حين غرّة، **وقفت أمامنا المطربة نفسها،**

التي كانت يومًا تغني "فيروز" بصوتٍ لا يشبهها.

قالت بابتسامةٍ لطيفة:

"مرحبًا... منوّرين. فيني أقعد معكم؟"

وقبل أن أجيب،

كانت عيناي على **مجد،**

الذي تجمّد مكانه، مصدومًا،

كأنه يرى حلمًا قديمًا يتحقق في المكان الخطأ.

جلست بالقرب من **مجد.**

كان يحاول أن يبدو متماسكًا، أن يُمسك زمام نفسه كما يفعل دائمًا،

لكنّ الارتباك كان واضحًا في عينيه،

تلك الارتعاشة الصغيرة التي لا يراها سواه.

نظرت إليها — المطربة — وسألتها بهدوء:

"شو بتشربين؟"

قالت مبتسمة:

"متلكم".

ثم التفتت إلى كأس الشاي أمام مجد،

ورفعت حاجبها بدهشةٍ خفيفة وقالت له:

"شاي؟"

ابتسم مجد، وردّ بسرعةٍ فيها ذكاء اللحظة:

"كان قبل ما تجي... بس بعد ما جيتي، تغير كل شي".

ضحكنا جميعًا، ضحكةً خفيفة كأنها بداية تواطؤٍ جميل.

أشار للنادل، وطلب **كأسين فارغين وثلجتين**.

حين أحضرهما، صبّ له ولها من الزجاجة،

رفع كأسه نحوها، وقال بنغمةٍ فيها نبلٌ مصطنع:

"نخب الحضور الجميل".

اصطدمت الكؤوس ببعضها،

ودقّها مجد بكأسها كما يفعل المحترفون،

ثم شرب كأسه **برشفةٍ واحدة**،

كأنّ عطشه كان قديمًا،

وكأنّها — هي — الماء المنتظر.

رفعتُ كأسي عاليًا،

فعلت هي الأمر نفسه،

وفي لحظةٍ واحدة، صرنا جميعًا نشرب ونضحك ونرقص على إيقاع الموسيقى التي تصاعدت فجأة.

كان الجوّ غريبًا...

غريبًا إلى حدّ اللذة.

المكان امتلأ بالأنوار والوجوه والضجيج،

لكننا كنا نعيش في فقاعتنا الصغيرة،

عزلةٌ حلوة وسط الفوضى،

كأننا نحتفل بانهيارنا سويًا.

شعرت أن شيئًا يتغيّر—

في مجد، فيي، في كل ما حولنا.

الليلة بدت وكأنها **تحوّل دراماتيكي خفي**،

الليل نفسه يمدّ يده نحونا ليقول:

"لقد تأخرتم... لكنني كنت بانتظاركم".

وفي تلك اللحظة،

فهمت لماذا سمّوها "الحياة الليلية— "

إنها ليست حياةً أخرى، بل **نفس الحياة، لكن بلا أقنعة**.

كانت ليلةً لا تُنسى.

كلّ شيء فيها بدا غريبًا... لكنه جميل.

فرحنا، ضحكنا، صرخنا، غنّينا،

كأنّنا نحتفل لا بشيءٍ محدد، بل فقط لأننا ما زلنا على قيد الحياة.

استمرت السهرة حتى أبواب الصباح،

حين بدأ الضوء يتسلّل من خلف الستائر الثقيلة كزائرٍ غير مرغوبٍ فيه.

خرجنا من الكباريه مثقلين بالشراب والضحك،

خطواتنا متشابكة ككلمات أغنيةٍ نسينا لحنها.

لم أكن أرى أمامي بوضوح،

كل شيء كان ضبابًا من الأضواء والذكريات والكحول.

قال لي مجد وهو يفتح باب السيارة:

"خليني أسوق عنك".

أجبته بابتسامةٍ متعبة:

"لا... بس اطلع بالسيارة، بصحى".

ركبنا.

الهواء البارد صفَع وجهي فأعاد لي بعض الوعي.

كانت الفتاتان — فاتن والمطربة — معنا للحظة،

أنزلناهما عند بيت المطربة في **مشروع دمر**،

ودّعتانا بابتسامةٍ سريعةٍ تشبه وعود الليل القصيرة.

واصلنا الطريق إلى الفندق.

من المفترض أن المسافة لا تتجاوز ربع ساعة،

لكننا قطعناها في **أكثر من ساعة** —

ضحكنا، صرخنا،

توقفنا مرتين لنشتري ماءً وسجائر،

كأنّنا نخاف أن تنتهي الليلة قبل أن تفرغ تمامًا من ضحكها.

كانت دمشق تنام حولنا،

الطرقات شبه فارغة، والهواء يحمل برودة ما قبل الشروق.

كنا نتحدث كمن يراجع معركةً انتهت للتوّ،

نقيم الحدث، نحلّل المواقف،

كأننا جنود خرجوا لتوّهم من حربٍ غريبةٍ اسمها "الفرح."

قال مجد وهو يضحك:

"بدنا نكتب تقرير باللي صار الليلة"!

ضحكت، وقلت له:

"والمقدّمة بتكون :*الليلة التي نسينا فيها النهار*".

كان بيننا شغفٌ غريب،

طاقةٌ تشبه الحلم قبل أن يصحو،

كأنّنا نعيش اللحظة الأخيرة من حياةٍ لن تتكرر.

لم ننم تلك الليلة.

جلسنا في الفندق حتى الظهر،

نتحدث بلا توقف،

نضحك على تفاصيل صغيرة لا يضحك عليها أحد،

نخطط كما لو أننا نُدير حربًا—

لكنها كانت حربًا على الملل،

على الخوف،

على الواقع الذي كنّا نهرب منه كلّ ليلة...

إلى **الكباريه**.

كانت الساعة **الرابعة ظهرًا**.

لم ننم منذ الليلة السابقة.

ليلة طويلة امتدت حتى أرهقتنا الضحكات والشراب والكلمات.

جلست قرب النافذة أحدّق في شمسٍ داميةٍ تميل نحو الغرب،

وكان مجد بجانبي يعبث بهاتفه ثم يضعه جانبًا كمن فقد اهتمامه بكل شيء.

قلت له بصوتٍ مبحوحٍ من التعب والسهر:

"نسافر اليوم؟"

رفع نظره إليّ ببطء،

في عينيه بريق طفلٍ يريد الخلاص،

وقال:

"خلينا اليوم".

كنت أنتظر منه هذه الجملة تحديدًا،

كأنني أحتاج موافقته لأستسلم لكسلي وإرهاقي.

ابتسمت وقلت له ببساطة:

"وليكن... لنبقَ اليوم".

ارتسمت على وجهه ابتسامة فرحةٍ صادقة،

ضحكنا بخفةٍ كأننا نضحك على كل ما جرى منذ الأمس.

ثم تمددنا على الأسرّة دون حتى أن نبدّل ملابسنا.

الستائر نصف مغلقة، وضوء النهار يتسلّل كخطوطٍ خجولة على الجدار.

غلب النعاس مجد أولًا،

كان تنفّسه الهادئ يملأ الغرفة كأن الليل نفسه نام داخله.

ثم لحقت به أنا،

غارقًا في نومٍ ثقيلٍ وعميق،

كأن الجسد أخيرًا استسلم بعد معركة طويلة.

نمنا طويلاً...

نمنا بسلامٍ نادرٍ يشبه الغياب.

كأنّ النوم لم يكن راحة، بل **هدنة قصيرة**

من حياةٍ بدأت تتسارع أكثر مما نحتمل.

استيقظنا على عجلٍ عند **الحادية عشرة ليلًا**،

كمن تأخّر عن موعد امتحانٍ مصيري.

لم نكن نعرف ما الذي يُستعجل بالضبط،

لكننا شعرنا أن الليل ينتظرنا،

وأن الكباريه لا يكتمل من دوننا.

دخلنا الحمّام بالتناوب،

ماءٌ بارد يضرب وجوهنا فيوقظنا دفعةً واحدة.

أخذنا دوشًا سريعًا، ثم بدأنا نرتدي ملابسنا وكأننا ذاهبان إلى موعدٍ رسمي.

رائحة العطور امتزجت بالبخار،

وأنا أسمع صوت مجد يقول من خلف المرآة:

"الوقت دايمًا أسرع بالليل".

كنت قد تحدثت مع **فاتن** على الهاتف قبل أن نخرج.

صوتها بدا متعبًا قليلًا، لكنه دافئ كعادته.

قالت لي:

"اسبقني... رح أجي لاحقًا".

خرجنا على عجل،

والشوارع كانت هادئة كأنها تستعد لتسليم المدينة إلى من يملكون ليلها.

دخلنا الكباريه كالعادة،

والأنوار كانت ترحّب بنا أكثر من الناس.

حتى مدير الصالة ابتسم وهو يلمحنا من بعيد،

وراقصات النمرة الأولى لوّحن بأيدٍ خفيفة كمن يحيي أصدقاء قدامى.

الكل كان بانتظارنا.

صار المكان بيتنا الثاني،

أو لعلّه بيتنا الحقيقي الذي لم نعترف به بعد.

صرنا **عائلة الليل**،

وجزءًا من نظامٍ لا يبدأ إلا بقدومنا.

كنا نعرف المقاعد والوجوه والموسيقى قبل أن تبدأ،

حتى أصوات النادلين وهم يصرخون بالطلبات صارت مألوفة،

كأنها موسيقى خلفية لحياتنا الجديدة.

ضحك مجد وقال وهو يجلس:

"صرنا مثل الوطاويط... ما منفيق غير المساء".

ضحكت معه وأنا أرفع كأسي:

"وطاويط دمشق... عائلة الكباريه".

كانت الجملة ساخرة، لكنها حقيقية.

ففي ذلك الوقت،

كنا قد أصبحنا بالفعل جزءًا من الليل—

ننام حين يشرق الضوء،

ونحيا فقط عندما يبدأ الظلام.

بدأت السهرة ككلّ الليالي السابقة—

ضحكٌ، موسيقى، أصواتٌ تتقاطع بين الطاولات،

ورائحة دخانٍ كثيفةٍ كأنها ضبابٌ من نوعٍ آخر.

كنا في أماكننا المعتادة،

مجد منهمك في الحديث مع مدير الصالة،

وأنا أراقب الباب بين لحظةٍ وأخرى دون وعي.

كنت أنتظر **فاتن**.

لا أعرف لماذا،

ربما لأن الليل دونها بدا ناقصًا،

أو لأن شيئًا فيها صار يربطني بهذا المكان أكثر مما كنت أظن.

مرّت ساعة،

ثم فُتح الباب فجأة، ودخلت.

بدت مختلفة قليلًا هذه المرة—

كأنها نامت أكثر، أو قررت أن تواجه ليلها بثقةٍ جديدة.

كانت ترتدي فستانًا أزرق غامقًا،

شعرها مسدول،

ونظرتها تحمل مزيجًا غريبًا من التعب والصلابة.

حين رأتنا، ابتسمت،

ابتسامة صغيرة لكنها صادقة،

ثم تقدّمت بخطواتٍ ثابتةٍ إلى طاولتنا.

قالت وهي تضع حقيبتها الصغيرة على الكرسي المجاور:

"تأخّرت شوي... اشتقتوا؟"

رد مجد ضاحكًا:

"غيابك عمل فجوة بالبرنامج"!

ضحكنا جميعًا،

ثم جلست بيننا،

وأشعلت سيجارتها كالعادة.

لكن هذه المرة، كان هناك شيء مختلف.

صوتها أهدأ، حديثها أكثر قربًا،

وعيناها — حين تتقاطعان مع عيني—

تحملان ما يشبه الحوار الصامت.

بدأت الحفلة تأخذ إيقاعها المعتاد،

المطربة على المسرح،

النادلون يتنقلون بين الطاولات،

لكن بالنسبة لي، العالم كله تقلّص إلى دائرةٍ صغيرة

فيها **أنا، ومجد، وفاتن**.

كانت تميل نحوي كلما أرادت قول شيء،

وصوتها يختلط بضجيج الموسيقى كهمسٍ خاص.

قالت لي فجأة:

"بتعرف... كنت ناوية ما أجي اليوم".

نظرت إليها باستغراب:

"ليش؟"

قالت وهي تطفئ سيجارتها:

"تعبانة... بس قلت لحالي إذا ما جيت، رح يظل في شي ناقص هون".

كلماتها مرّت عليّ كنسمةٍ دافئة وسط دخانٍ كثيف.

لم أقل شيئًا، لكنني ابتسمت فقط.

كانت تلك الليلة مختلفة.

لم يكن فيها الكثير من الصخب،

ولا من الشراب،

لكنها كانت **أكثر صدقًا**.

جلسنا طويلًا نتحدث — عن الحرب، عن السفر، عن الغياب—

وكان مجد، بين الحين والآخر، يضحك بصوتٍ عالٍ

ثم يسكت فجأة كمن يفكّر في شيءٍ لا يريد أن يقوله.

وعندما اقترب الفجر،

كانت الموسيقى قد خفتت،

والأنوار صارت أهدأ،

وفاتن تستند إلى الطاولة بيدها وتقول بصوتٍ متعب:

"الليل خلص، بس بعده طويل جوّانا".

كأنها كانت تقرأ ما في داخلي.

لأول مرة، شعرت أن الكباريه لم يعد مجرد مكان نذهب إليه...

بل صار **مرآةً لكلّ ما نخفيه**.

في اليوم التالي، استيقظت متأخرًا.

الساعة كانت الثالثة عصرًا،

وضوء الشمس يتسرّب من شقّ صغير في الستارة كأنه يحاول أن يذكّرني أن هناك نهارًا ما زال موجودًا في هذا العالم.

مجد كان يجلس في زاوية الغرفة،

يمسك هاتفه ويدخّن بصمت،

وجهه نصف مغمور بالظلّ، ونصفه الآخر يلمع بضوء الشاشة.

قلت له وأنا أتمطّى:

"شو؟ نرجع اليوم؟"

أجاب دون أن يرفع رأسه:

"ما بعرف... حسّيت البارحة إني اكتفيت من كل شي".

لم أعلّق، فقط نظرت إليه طويلًا.

كان في صوته شيء يشبه التعب، أو ربما بداية انسحابٍ غير معلن.

بعد قليل، خرجت إلى الشرفة.

المدينة في الأسفل بدت هادئة، كأنها لم تكن تعرف عن الليلة الماضية شيئًا.

أشعلت سيجارة،

وبين أول سحبةٍ وثانيتها، خطر في بالي وجه **فاتن**.

اتصلت بها.

ردّت بعد ثلاث رنّات بصوتٍ خافتٍ ومرح:

"صحّيت؟"

قلت مبتسمًا:

"تقريبًا... وإنتِ؟"

قالت:

"أنا بالشغل من الصبح... عندي سهرة اليوم، بس ما رح ضلّ لآخر الليل".

كانت لهجتها عادية،

لكن بين الكلمات خيطٌ من دفءٍ غير مفسَّر،

كأنها تقول أكثر مما تنطق.

في المساء، عدنا إلى الكباريه،

لكنّ مجد بدا مختلفًا.

لم يعد يضحك كما كان،

ولم يبدُ مفتونًا بالمكان كما في الليالي السابقة.

كان يجلس صامتًا، يراقب الناس بعيونٍ شاردة،

كأن شيئًا في داخله بدأ يبتعد.

أما **فاتن**،

فكانت أكثر حضورًا من أيّ ليلةٍ مضت.

جلست بجانبي دون كلامٍ كثير،

كانت تكتفي بأن تبتسم كلما التقت نظراتنا.

لم يكن بيننا حديثٌ صريح،

لكن الصمت بيننا صار يقول أكثر من كل الأغاني.

وفي لحظةٍ ما،

مدّت يدها بخفّةٍ نحو يدي،

لم تمسكها تمامًا،

بل لامست أصابعي لثانيةٍ واحدةٍ فقط،

كأنها تجربة خجولة للتأكد إن كنتُ ما زلتُ هناك.

نظرت إليها.

في عينيها تلك النظرة التي تجمع بين القوة والخوف،

بين امرأةٍ تعرف كيف تنجو،

وفتاةٍ ما زالت تبحث عن مكانٍ تُحبّ فيه بسلام.

قالت بصوتٍ أقرب إلى الهمس:

"تعرف... يمكن نحنا الاثنين من نفس النوع،

نضحك كتير... بس جوّاتنا في شي عم يغرق ببطء".

لم أعرف بماذا أجيب.

كانت كلماتها بسيطة،

لكنها أصابتني كحقيقةٍ أعرفها منذ زمنٍ ولم أجرؤ على قولها.

نظر مجد نحونا للحظة،

ابتسم ابتسامة صغيرة،

ثم أشاح بوجهه نحو المسرح.

لم يقل شيئًا،

لكني شعرت أن بينه وبين الليل صراعًا بدأ يأخذ شكلًا آخر،

بينما أنا... كنت أغرق أكثر،

لا في الشراب ولا في الكباريه،

بل في **فاتن** نفسها.

عدنا إلى **طرطوس** عند الغروب اليوم التالي

كان البحر هادئًا على غير عادته،

وألوان السماء تميل إلى الرمادي الخفيف،

وكأن المدينة نفسها تعرف أننا عدنا مثقلين.

دخلنا المدينة دون كلام،

كل شارعٍ مررنا به بدا مألوفًا أكثر مما يجب،

لكن في الوقت نفسه، باردًا، خاليًا من الحياة.

لم يكن في الطريق ضجيج الكباريه،

ولا أضواءه،

ولا تلك الوجوه التي كانت تبتسم بلا سبب.

وصلنا إلى المنزل.

ودّعني مجد عند الباب بعبارة قصيرة:

"بكرة بحكي معك".

ثم غاب في سيارته كأنه يهرب من شيءٍ لا يريد مواجهته.

دخلت بيتي.

كان السكون يملأ المكان.

رائحة الغبار في الزوايا،

وفناجين قهوةٍ قديمة على الطاولة لم ألمسها منذ أيام.

ألقيت بجسدي على الأريكة،

ورحت أحدّق في السقف دون هدف.

الليل هنا مختلف——

ليس صاخبًا، ولا مضيئًا، ولا مغريًا،

بل **هادئ حدّ الخنق**.

كنت أسمع صوت البحر البعيد يضرب الصخور،

لكن في داخلي كان هناك ضجيج آخر لا ينطفئ.

أشعلت سيجارة،

وفتحت الهاتف.

رسائل كثيرة لم أجب عليها،

لكن عيني بحثت مباشرة عن اسمٍ واحد:

فاتن.

لم تكن هناك رسالة منها.

ولا حتى إشعارٌ صغير.

شعرت بفراغٍ غريبٍ يمتدّ في صدري.

كل شيءٍ من حولي بدا عادياً،

لكنه لا يشبهني بعد الآن.

كأنني عدت من حياةٍ أخرى إلى حياةٍ لا تخصّني.

جلست على الشرفة.

طرطوس أمامي،

هادئة، مطمئنة،

لكنها — في تلك اللحظة — بدت لي أبعد من دمشق،

وأبعد حتى من نفسي.

لم أستطع النوم تلك الليلة.

كنت أتنقّل بين الغرفة والشرفة والمطبخ،

كأنني أبحث عن شيءٍ ضاع في مكانٍ ما من الطريق.

شيءٌ يشبه **فاتن**،

ويشبه **ذلك الشعور الغامض بالامتلاء وسط الخراب**.

في الصباح،

أشرقت الشمس كأن شيئًا لم يحدث.

المدينة عادت إلى روتينها،

الناس إلى أعمالهم،

وأنا...

كنت أحاول أن أُقنع نفسي أن كل ما جرى لم يكن سوى مغامرةٍ عابرة،

بينما كنت أعرف في أعماقي

أن الكباريه — رغم كل شيء—

لم يغادرني بعد.

مرّت أيام قليلة بعد عودتنا إلى **طرطوس**،

لكن الوقت فيها بدا أطول من اللازم،

كأنّ كل دقيقةٍ تذكّرني بأن شيئًا ما قد انتهى.

حاولت العودة إلى عملي،

لكنّ وجهي في المرآة كان يفضحني.

تلك العيون التي لم تنم كفاية،

وذلك الهدوء الغريب الذي يسكنني كأنني رجلٌ رأى أكثر مما ينبغي.

مجد لم يتصل في اليوم التالي كما وعد.

مرّت ثلاثة أيام قبل أن أراه صدفةً.

كان يقف أمام المقهى القريب من الميناء،

ينظر إلى البحر بسيجارةٍ في فمه وعينين زائغتين.

سلّمت عليه، جلسنا،

تحدثنا قليلًا،

لكنّ حديثه كان باهتًا — عن العمل، الطقس، الأسعار،

كأنّ الكباريه لم يكن إلا حلمًا مشتركًا لم يحدث قط.

وفي لحظة صمتٍ قصيرة،

قال فجأة دون أن ينظر إليّ:

"أنا خلص... ما عاد بدي أسافر لهنيك".

لم أعلق.

لكن شيئًا في قلبي انكمش.

شعرت أنه يغلق الباب خلفه،

بينما كنت أنا ما زلت واقفًا على العتبة.

في المساء، عدت إلى البيت.

كانت العادة القديمة تحاول أن تستعيد سلطتها—

عشاء بسيط، بعض الأخبار على التلفاز، ثم النوم.

لكنني كنت أقاومها بصمتٍ.

كل شيء صار بلا طعم، بلا معنى.

أخذت هاتفي.

فتحت سجلّ المكالمات.

توقفت عند الاسم الذي حفظته أصابعي قبل عينيّ:

فاتن.

تردّدت لحظة، ثم ضغطت على الاتصال.

رنّ الهاتف طويلًا.

ثم جاء صوتها من بعيد، ناعسًا ومألوفًا:

"أهلًا"...

قلت مترددًا:

"أنا... رجعت".

ضحكت ضحكة قصيرة فيها صدق التعب:

"عرفت، مجد بعتلي صورة من الطريق".

قلت:

"اشتقت".

صمتت قليلًا، ثم قالت:

"أنا كمان".

كانت الكلمات بسيطة،

لكنها أعادت للغرفة دفء الكباريه القديم—

ذلك الضوء الخافت، صوت الموسيقى، رائحة الدخان.

تحدثنا قليلًا — عن لا شيء تقريبًا—

لكن الحديث استمر طويلاً.

كانت كأنها هناك، جالسة إلى جانبي،

تتنفس معي نفس الهواء الذي فقدته منذ رحلنا.

حين أغلقت الهاتف،

بقي صوتها يتردد في رأسي كأغنيةٍ منسية.

خرجت إلى الشرفة،

الليل فوق البحر هادئ،

لكن في صدري كان يشتعل من جديد.

عرفت عندها أن **الليل لم يغادرني**،

بل عاد بطريقةٍ أخرى،

عبر صوت امرأةٍ

كانت الأسئلة تنهش رأسي كريحٍ عالقة بين جدرانٍ ضيّقة:

لماذا نحن هنا؟

لماذا لم نبحث عن ضالتنا في مكانٍ أنظف،

في عالمٍ أقلّ قسوة من هذا؟

كنت أشعر أن شيئًا في داخلي يتحرك ببطء،

كأنني أرى نفسي من الخارج،

رجلًا يجلس على حافة الليل،

يحاول أن يجد في العتمة ما فقده في الضوء.

لم نكن أنا ومجد نبحث عن المتعة فقط،

كنا نبحث عن **حالةٍ نكون فيها نحن**،

دون أقنعة، دون خجل، دون أن نبرّر ضعفنا.

في الكباريه كان كل شيءٍ مسموحًا،

وكل شيءٍ واضحًا حدّ الفضيحة.

عالم بلا زيف،

لكن أيضًا بلا خلاص.

الجميع هناك يعرف أن الكل يكذب على الكل.

الضحك مصطنع، والمشاعر مؤجرة،

وكل نظرةٍ تحمل ثمنها.

ومع ذلك،

كان في ذلك الصدق الفاجر شيءٌ يغرينا.

كأننا نفضّل الكذب المعلن

على الصدق الذي يختبئ خلف الاحترام المزيّف في الخارج.

كنا نبحث عن لحظةٍ بلا مقدمات،

عن مساحةٍ صغيرةٍ نعيش فيها ما نشعر به

من دون أن نحاكم أنفسنا.

لكنّ ما لم ننتبه له

أننا كنا نحاكم أنفسنا أكثر من أيّ أحدٍ آخر.

ربما كنّا نحاول أن نعوّض شيئًا مفقودًا،

حبًّا لم يكتمل، طفولةً ناقصة،

أو وطنًا داخليًّا تآكل مع الأيام.

كان الكباريه بالنسبة لنا **ملجأ مؤقتًا**،

نهرب إليه من وجوهنا الحقيقية،

ثم نعود نحمل معنا جزءًا من وسخه وحرارته.

أما فاتن،

فكانت السؤال الأصعب في كل هذا.

هل أحببتها فعلًا؟

أم أحببت الصورة التي مثّلتها لي؟

كانت تشبه المرايا التي نرى فيها أنفسنا بوضوحٍ مؤلم،

ثم نحطمها خوفًا من الحقيقة.

لم تكن فاتن امرأة،

ولا الكباريه مكانًا،

كان كل ذلك مجازًا عنّا—

عن هشاشتنا، عن ضياعنا،

عن تلك المسافة بين من نحن فعلًا

ومن نحاول أن نكون.

في حديثٍ طويلٍ امتدّ حتى الفجر،

جلست أنا و**مجد** نعيد تفكيك كلّ ما رأيناه هناك.

كان الصمت يسبق كل جملة،

كأن الكلمات تخاف من أن تُقال بصوتٍ عالٍ.

قال مجد، وهو ينظر إلى الفراغ أمامه:

"بتعرف شو؟ يمكن الكباريه هو المكان الوحيد اللي بيجمع الكل... بدون شروط، بدون أقنعة".

سكتُّ.

فكرّتُ قليلًا، ثم قلت:

"يمكن... هو الوحيد اللي بيجرّدنا من كذبتنا اليومية.

السياسي بيقعد حدّ خصمه،

المتدين حدّ العاهر،

الغني حدّ الفقير،

الكل هناك سواسية...

تحت نفس الضوء...

يبحثون عن شيءٍ واحد: النسيان".

كان الكباريه، في جوهره،

مكانًا **يلغي الفوارق كلها**.

هناك لا أحد يرفع شعارًا، ولا أحد يتحدث عن مبادئ،

الكلّ يخلع عباءته عند الباب،

ويدخل كما هو، عارٍ من كلّ ما يمثلّه في النهار.

تراه يجلس أمامك طبيبًا مشهورًا، أو ضابطًا، أو رجل دين،

لكن حين يدخل المكان، يصبح مجرد **نفسٍ جائعة**،

تبحث عن عطرٍ، عن نظرةٍ، عن ملامسةٍ تذكّره أنه ما زال حيًّا.

قال مجد وهو يضحك بمرارة:

"النهار بيخلي الناس تمثل...

الليل بيخليهم يعترفوا".

وأنا كنت أعرف أنه على حق.

في الكباريه، لا أحد يسأل عن دينك أو مذهبك أو رأيك في السياسة.

الاختلافات التي تشعل الحروب في الخارج تذوب هنا في كأسٍ واحدة.

تراهم يجلسون معًا — اليساري مع التاجر، العسكري مع الهارب من الخدمة،

المؤمن مع الزانية، الكلّ في طاولةٍ واحدة،

كأنهم تلاميذ في صفّ واحد من مدرسة الخطيئة.

وهناك، في تلك الليلة بالتحديد،

أشار لي مجد نحو طاولةٍ قريبة.

رجلٌ سبعيني، شعره أبيض، ووجهه متجعّد،

يجلس برفقة فتاةٍ في العشرين من عمرها،

تشعّ بالإغراء والحياة.

كانت تضحك،

تقبّله على خده،

تلمس يده بحنانٍ يشبه حنان الأمهات.

أما هو، فكان يبتسم كطفلٍ استعاد لعبةً ضاعت منه منذ سنين.

نظر مجد نحوي وقال هامسًا:

"شوف... كيف عم ترجّع له الحياة".

راقبته طويلاً.

لم أرَ في المشهد ما يراه الآخرون من ابتذال،

بل شيئًا آخر تمامًا—

جلسة علاجٍ مؤقتة لإنسانٍ على وشك أن يودّع نفسه.

في لحظةٍ واحدةٍ،

كانت تلك الفتاة تعيد إليه إحساسه بالوجود،

توقظ فيه ما ظنّ أنه مات إلى الأبد: الرغبة، الفضول، الدهشة.

لم تكن تبيعه جسدها فقط،

بل كانت تبيعه **وهماً من الحياة**،

دواءً ضدّ العدم،

ضوءًا صغيرًا وسط عتمة الشيخوخة.

حينها أدركت شيئًا مرعبًا:

أن كل الداخلين إلى الكباريه — نحن، هو، الجميع—

كنا **مرضى نفسيين** بطريقةٍ أو بأخرى.

كلٌّ منا يبحث عن جرعته الخاصة من الحياة،

بطريقته، بثمنه، بذنبه.

بعضهم يأتي ليهرب من نفسه،

وبعضهم ليؤكّد أنه ما زال قادرًا على أن يُراد،

وبعضهم فقط...

لأنه لم يجد مكانًا آخر يُسمع فيه صوته.

قال مجد وهو يسحب نفسًا من سيجارته:

"المكان فيه سرّ... بتحسّ إنك بطل، حتى لو ما كنت شي".

كان على حق.

الكباريه يمنحك وهم البطولة،

نشوة أن تكون مركز الكون ولو لساعة.

فيه تشعر أنك حرّ،

لكنها حرية تشبه المرض—

تمنحك لذّة قصيرة، ثم تتركك فارغًا أكثر من قبل.

في النهاية، أدركنا أننا لم نكن زوّارًا لذلك المكان،

بل **كنّا جزءًا من معناه**.

كأن الكباريه لم يُخلق ليقدّم المتعة فقط،

بل ليعكس للناس وجوههم الحقيقية حين تُطفأ الأنوار.

ولأول مرة،

شعرت أنني لا أريد مغادرته.

لم يعد المكان خطيئة،

بل مختبرًا كبيرًا للصدق الإنساني العاري.

كان في الكباريه سرّ عظيم:

أنك لا تخاف أن تكون نفسك، مهما كانت بشعة.

ولهذا قرّرت — في داخلي—

أن أعود إليه متى شئت،

لا طلبًا للمتعة،

بل بحثًا عن الحقيقة التي لا تُقال في النهار.

منذ تلك الليلة، لم نعد نغادر الكباريه حتى ونحن خارجه.

صار يسكننا كفكرة، كظلّ، كذاكرةٍ لا تنطفئ.

كلما مرّت الأيام،

كنت أكتشف أن ما رأيناه لم يكن مجرد ترفٍ ليليّ،

بل نافذةً على أعماق البشر—

على ما يُخفونه تحت القماش والكلمات والمناصب.

كنت أعمل كعادتي،

لكنني صرت أنظر إلى زملائي بطريقةٍ مختلفة.

أرى في وجوههم شيئًا من أولئك الذين جلسوا هناك.

المدير الذي يتحدث عن الأخلاق،

كنت أرى خلف عينيه عطشًا لا يشبعه إلا الخطيئة.

والصديق الذي يفاخر بنزاهته،

كنت أسمع في صوته ارتجاف الخوف من انكشافه.

أما **مجد**،

فكان التغيّر عليه أوضح.

صار أكثر صمتًا،

يضحك قليلًا، ويتكلم أقلّ.

كنت أراه أحيانًا يسرح طويلًا كأنه يسمع موسيقى بعيدة.

وحين أسأله، يجيب بابتسامةٍ باردة:

"اشتقت للضوء الملوّن... هناك كل شي كان واضح".

كنت أعرف أنه يقصد الكباريه.

كان يهرب إلى دمشق بحجج مختلفة،

مرةً لعقد، ومرةً لزيارة صديق،

وأعود لأجده بعد يومين،

بعينين تائهتين وابتسامةٍ تشبه الإدمان.

كنت أراه يغرق ببطء.

شيء ما في داخله كان ينكسر.

ربما وجد هناك ما لم يستطع العالم منحه:

القبول، أو النسيان، أو مجرد صوتٍ يسمع وجعه دون أن يحكم عليه.

أما أنا،

فكنت أغرق بطريقةٍ أخرى—

في التفكير، في التحليل، في الحيرة.

كنت أعود ليلاً إلى البيت وأشعل ضوءًا خافتًا،

أكتب جملًا متقطعة في دفترٍ صغير:

"كل إنسانٍ يحمل كباريه داخله.

بعضهم يزوره ليلاً،

وبعضهم يعيش فيه نهارًا دون أن يدري".

كنت أحاول أن أفهم:

لماذا يمنحنا المكان راحةً مؤقتة رغم قذارته؟

لماذا يحررنا كل هذا الزيف؟

هل لأننا نحن الزائفون أصلاً، والمكان فقط يعكسنا كما نحن؟

في كل جلسةٍ مع مجد،

كان النقاش يدور حول الشيء نفسه.

كان يقول:

"الناس برا بتخاف من الحقيقة... جوا كلهم بيصيروا صادقين".

كنت أرد عليه:

"بس الصدق اللي جوا ممزوج بالألم...

كأنك بتشوف نفسك من دون جلدك".

كان يصمت، ينفث دخان سيجارته،

ويقول:

"بس على الأقل بتشوف".

في تلك الفترة،

صرت أخاف من مرآتي.

كنت أتجنب النظر إلى وجهي في الصباح،

كأنني أخشى أن أرى فيه انعكاس ذاك الضوء الأحمر المتراقص في الزاوية،

أو أن ألمح ظلّ فتاةٍ من الماضي تبتسم لي من وراء الدخان.

لم نكن نعرف وقتها

أن الكباريه لم يعد مكانًا يمكن مغادرته،

بل أصبح **حالةً مزمنة من الإدراك**.

إدراكٌ يجعل العالم مكشوفًا أكثر مما يحتمل،

ويجعل الصدق مؤلمًا أكثر من أي كذب.

ولأول مرة في حياتي،

شعرت أن الحقيقة — مهما كانت جميلة—

هي شكل آخر من العذاب.

اصبحت اتصالات **فاتن** أكثر.

صباحًا بصوتٍ خافت يشبه أوّل ضوء، ومساءً كهمس البحر حين يتعب من نفسه.

أحيانًا تسأل عن أشياء لا معنى لها:

"شو شربت قهوتك؟ كيف البحر اليوم؟"

لكنّي كنت أفهم أن السؤال ليس عن القهوة ولا عن البحر،

بل عن **وجودي** :هل ما زلت هنا؟ هل ما زلت أصغي؟

صرتُ أنتظر هاتفها كمن ينتظر النعاس بعد أرقٍ طويل.

أضع الهاتف قرب النافذة، كأنه تعويذة،

أراقب اسمي على شاشتها حين يظهر في الطرف الآخر من المدينة،

وأشعر أن العالم، لوهلة، يتسع بقدر نبرة واحدة تقول: "ألو".

حين ألتقي **مجدًا**، أتحدث عنها كثيرًا،

ينكشف صوتي، تتسرب مني كلمات لا أتحكم بها،

كأن قلبي سبقني إلى الكلام.

كان مجد يصغيني لثوانٍ، ثم يطفئ في حديثي النيران الصغيرة بجملة واحدة:

"عيش الحالة... بس لا تتورّط.

بالأخير هي مع يلي بيدفع أكتر.

إنت زبون... بس زبون أنضف من الباقي.

مو متل اللي بدّن جسدها من أول مساومة.

إنت غير... ولهيك عم تتقرب،

لأن الجانب العميق فيها بيحب يكون معك".

كلامه قاسٍ، لكنه **صادقٌ جزئيًا** ككل الحقائق المؤلمة.

كان يضع إصبعه على التناقض الذي يحاول قلبي أن يجمّله:

أن العلاقة بيننا تتغذّى من **نظام مكسور**،

لكنها تحنّ إلى مساحةٍ سليمة لا تسمح بها شروط المكان.

كنتُ أفكّر: ماذا لو كانت الحقيقة **طبقتين** لا طبقة واحدة؟

طبقةٌ ظاهرة، تجارية، مكشوفة،

فيها الأسعار والوقت والبنود غير المكتوبة؛

وطبقةٌ أعمق، شخصية، مراوغة،

فيها جراح الطفولة، والهجر، ومحاولة البقاء.

في الأولى أنا "عميل"،

وفي الثانية أنا "إنسان" تصادف أن يلمس شيئًا في داخلها.

هل يمكن أن تتعايش الطبقتان دون أن تقتلا بعضهما؟

أم أن إحداهما تلتهم الأخرى في النهاية؟

كنت أفكر أيضًا في **اللغة** التي اخترناها كي ننجو:

نحن نسمّي التعلق "حالة"،

والرحمة "لطفًا"،

والحاجة "مزحة"،

والخوف "انتباهًا."

كأننا نُبدّل أسماء المشاعر لتهدأ الوحوش في الداخل.

لكن الوحوش لا تهدأ بالأسماء،

تحتاج **حضنًا** لا عقدًا، واعترافًا لا فتوى.

أحيانًا كانت فاتن تتكلم، فأصمت أنا.

ليس لأنني لا أملك ما أقول،

بل لأنني أخاف أن تفسد اللغة ما تبنيه **السكوتات**.

كانت تروي تفاصيل صغيرة:

باب البناية الذي يصفق، جارتها التي لا تنام،

طفلًا رآها في المصعد وسألها إن كان البحر قريبًا من بيتها.

تفاصيل لا تساوي شيئًا في حساب السوق،

لكنها في حساب القلب **كنوزٌ صغيرة** تؤكد أن الروح ما زالت تقاوم.

هل أحببتها؟

سؤالٌ أطرحه على نفسي كل مساء،

ثم أتركه معلّقًا كي لا ينهار كل شيء إذا أجبتُ بـ"نعم."

الحب هنا **ليس قصة نظيفة**،

إنه حُبٌّ يقف في غرفةٍ فيها طاولة أسعار،

ويحاول أن يفتح نافذة على الهواء.

هو حُبٌّ يعرف أن قدميه تقفان على أرضٍ زلقة،

ومع ذلك يحاول أن يمشي باستقامة.

كان مجد يقول:

"الحب فكرة عظيمة... بس المكان ما بيتحمّلها.

المكان مصنوع للّذة القصيرة،

مو للمعنى الطويل".

وأنا كنت أشعر بالعكس:

أن المكان، بعريه الفجّ، **يضطرّك** لمواجهة الحقيقة بلا فواصل؛

فإما أن تحبّ على الرغم من العار،

أو أن تهرب باسم الأخلاق بينما قلبك يتسوّل عند الباب الخلفي.

بين "العميل الأنظف" و"الإنسان الأقرب"

تتأرجح علاقتنا مثل مصباحٍ في ممرّ طويل.

تعرف هي أنني لا أساوم على جسدها،

وأعرف أنا أن جسدها ليس سلعة في قاموسي،

لكننا معًا لا نملك **إلغاء القاموس** الذي صنع المكان.

نحاول فقط أن نكتب هامشًا بقلم رصاص:

"هنا حدث شيء يشبه الأمان".

كنت أكتشف طبقاتها ببطء:

طبقةٌ تتقن لعبة المسافة،

وأخرى تسأل سؤالًا طفلًا: "رح تضل تسمعني؟"

وأعمق من الطبقتين، نواةٌ صلبة،

فيها امرأة لا تريد الخلاص من الماضي،

بل تريد **معنىً** يفسّر لماذا بقيت حيّة بعد كل هذا الخراب.

الهاتف بيننا صار **جسرًا**:

طرفٌ يمدّ يدَه من ظلام الكباريه،

وطرفٌ يمدّ قلبه من ظلامٍ آخر لا يقلّ قسوة—

ظلام الوحدة.

كل "ألو" كانت جلسة علاج قصيرة،

وكل "تصبح على خير" كانت توقيعًا مؤقتًا على هدنةٍ مع العالم.

هل أنا ضحيّة؟ ربما.

هل هي جلّادة؟ قطعًا لا.

نحن — ببساطة — **ناجيان**،

التقينا في منتصف البحر، نتشبّث بلوح خشب واحد،

نسمّيه مرة "حبًا"، ومرة "صدفة"، ومرة "غلطًا جميلًا."

لكننا نعرف — في أعماقنا—

أن تسمية اللوح لا تغيّر وظيفته:

أن **ينقذ**.

في ليالٍ بعينها،

كنت أسمع كلمات مجد تطنّ مثل نحلةٍ لا تموت:

"لا تتورّط".

التورّط، في القاموس العملي،

هو أن تخسر مالك ووقتك.

أما في قاموسي الجديد،

فهو أن تخلع قفازك وتلمس الحقيقة بيدٍ عارية.

وهذا ما حدث:

خلعتُ قفازي.

لذلك حين رنّ الهاتف مساءً،

أجبت قبل الرنّة الثانية.

لم تقل الكثير، لم أقل الكثير.

لكنّ ما بين الصمتين

كان **أكثر فصاحة** من أي بيان:

أننا — رغم النظام الفاسد الذي يطوّقنا—

نحاول أن نحرس شيئًا صغيرًا ونادرًا

اسمه :**الكرامة في الحب**.

في النهاية،

قد أكون "عميلًا أنظف" في نظر السوق،

لكنني — في نظري — رجلٌ يحاول

أن يترك **بابًا مواربًا** للحقيقة،

كي تدخل من خلاله،

ولو مرّة واحدة،

من دون أن تُفتَّش عند الباب.

لم يكن **مجد** يذكر المطربة أبدًا.

لا تلميح، لا نكتة عابرة، ولا حتى زلة لسان.

كان يصغي إليّ حين أتحدث عن **فاتن**، يبتسم، ينصحني بعبارات قصيرة وحذرة؛

لكن وراء تلك الهدوءات كنتُ أرى ظلًا صغيرًا يتحرّك في عينيه،

شيئًا مؤجَّلًا، مؤجَّمًا، لا يريد إخراجه إلى الهواء.

صباح الخميس رنَّ الهاتف.

صوت **فاتن** جاء بلا استئذان:

"اشتقتلك... فيك تجي اليوم عالشام؟ منقضي يومين إذا فاضي. وإذا جاي منشان حضر غدا على ذوقك".

لم أتردد.

قلت :**نعم، قادم**.

اتصلت بمجد:

"ذاهب إلى دمشق... يومان مع فاتن، خارج الكباريه. بتيجي؟"

قال ببساطة:

"آتي".

في الواحدة كنّا على الطريق.

الأغاني المعتادة، البروتوكول نفسه: محطة الوقود،

لكننا مررنا من دون **الجلّاب**—

فالغداء عزومة **فاتن**.

عند الباب، كان الاستقبال **دفئًا خالصًا**.

اللهفة لم تكن مصنوعة؛

ذاك النوع من اللهفة الذي يخفّض الصوت ويعلي خفق القلب.

نادت لابنها: "تعال سلّم".

دخل طفلٌ في التاسعة:

طيف توحّد ينسحب على ملامحه،

وعين يسار مطفأة بضربة قديمة.

حين رأيته شعرتُ أن شيئًا في داخلي يهتزّ؛

مشهدٌ قصيّ، صامت،

يلف يدك من الداخل ويشدّها إلى أسفل.

العطب كان واضحًا،

لكن الأعجب أن **الحياة** أيضًا كانت واضحة—

كزهرةٍ تنبت في شقّ جدار.

جلسنا إلى المائدة.

طعامٌ يفيض عن اللغة.

أكلتُ أنا ومجد **بحبّ**؛

قلت لها ضاحكًا:

"أنتِ شيف درجة ممتازة".

ضحكت:

"لسّا ما شفت شي".

بعد الشاي، بدأت الأحاديث تتمدد.

قالت لمجد:

"عم أسمع أخبارك من المطربة... وعرفت إنها ناطرتك".

تجمد شيءٌ في وجهي.

لم أكن أعرف أنه يتواصل معها.

نظرتُ إليه.

قال بابتسامةٍ قصيرة:

"عادي... صداقة. خصوصيّات".

وضَحِك.

حين هممنا بالخروج إلى الفندق، قالت فاتن بثقةٍ دافئة:

"فندق شو؟ هاد بيتكن. بتضلّوا هون".

تفاجأت.

كان العرض **عاطفيًا** أكثر مما توقعت.

قال مجد:

"أنا رايح على بيت المطربة... بدي شوفها. ظلّ هون، ومنلتقي بالمساء".

كانت تلك أول مرّة **نفترق فيها في دمشق**؛

كنّا دائمًا نبيت في الغرف نفسها،

نقفل على الليل معًا.

هذه المرة انقسمت المدينة إلى بيتين،

وصرنا **شخصين** لا ظلّين.

حاولت الاعتذار:

"لا بدي فندق... ما بدي عذّبكن".

أمسكت يدي،

سحبتني بخفة الواثق،

وفتحت باب غرفة:

"مجهّزِة كل شي: شحّاطة جديدة، مناشف، صابون... كله إلك. إبقى".

انصعت.

غادر مجد،

وبقيت أنا في البيت الذي سيحتاج قلبي وقتًا طويلًا كي يتخلّص من **ثقله الحلو**.

ذلك المساء، اكتشفت أن **البيت امتحانٌ أصعب من الكباريه**.

في الكباريه، كل شيء معلَّق على السقف: أضواء، أسعار، أدوار.

في البيت، كل شيءٍ على الأرض:

كوبُ ماءٍ يترك أثره على الطاولة،

لعبةٌ صغيرة لطفلٍ لا يتكلّم،

وشالٌ مرميّ على أريكة لا تتجمّل لأحد.

في الكباريه نحرس **الصورة**،

وفي البيت نحرس **الإنسان**.

كنت أمشي ببطءٍ بين الأثاث كمن يتعرّف على ملامح وجهٍ جديد.

لغرفة الطفل رائحة صابونٍ خفيف وقطعة قماشٍ خضراء على حافة السرير؛

على الجدار رسمٌ بريء لشمسٍ بعينين.

مددت أصابعي نحو الورقة ثم سحبتها—

خشيتُ أن أترك بصمةً غير مرئية على حياة لا تخصّني.

جلسنا في الصالة.

السكوتات بيننا كانت **أوسع** من الكلام،

لكنها ليست سكوتات خوف؛

سكوتات **أمان**،

تقول: لستَ مضطرًا لتمثّل شيئًا هنا.

سألتني فجأة:

"بتخاف من المكان الطبيعي؟"

لم أفهم.

أكملت:

"يعني من بيت... من طبق رز على الغاز... من ولد نايم... من ضوّ بسيط".

تذكرتُ نفسي في الكباريه:

أعصى على الرحمة، أسهل على الاعتراف.

قلتُ بصوتٍ منخفض:

"يمكن... المكان الطبيعي بيطلّع الحقيقة بلا ستارة".

هزّت رأسها:

"والستارة بتريحنا... بس ما بتشفينا".

اتصالٌ قصير من مجد:

صوته نشيط، جملة سريعة: "مرتاح... بشوفك بكرا".

أغلقت الهاتف،

وشعرت لأول مرة أن طرقنا **بدأت تتباعد بهدوء**.

ليس خصامًا؛

بل نهرٌ واحد انقسم إلى جدولين:

هو ينساب نحو **العادة**،

وأنا—لا أدري إلى أين.

ليلٌ عاديّ—هذا ما ظننته.

لكن داخلي لم يكن عاديًّا.

في البيت، تتحول **الأسئلة** إلى أثاثٍ أيضًا:

على اليسار تساؤلٌ عن معنى الحضور،

على اليمين شكٌّ في عدالة الحظّ،

وفي المنتصف أريكة كبيرة يجلس عليها **ضميرك** ويسألك:

هل هذا حبّ؟ أم مجرد **نجاة مشتركة**؟

كان حضور الطفل في البيت **مِرآةً أخلاقية**:

البقعة التي تصحّح ميل قلبك.

حين يمرّ أمامك بطمأنينته الجريحة،

تشعر أن اللغة يجب أن تُعاد من أولها:

أن "المتعة" لفظٌ فاسد،

وأن "الحنان" ليس رفاهية.

تدرك فجأة أن كل القصص الكبيرة التي نرويها عن أنفسنا

تبدو مضحكة أمام **عينٍ مطفأة** لطفلٍ يتعلم العالم بأصابع يده.

فاتن في بيتها ليست فاتن في الضوء الأحمر.

تضع رأسها على الجدار حين تتعب،

وتتحقق من حرارة الماء قبل أن تصبّه في إبريق الشاي،

وتسألني بكلمةٍ واحدة عن يومي: "كيفك؟"

ثلاثة أحرف، لكنها **نظّفت** ضجيج أشهر.

عرفتُ لماذا الكباريه أخّاذ:

لأنه يوفّر علينا الاعترافات.

لكن عرفتُ أيضًا لماذا البيت أشدُّ خطرًا:

لأنه **يجبرك** على الاعتراف الذي تؤجّله.

في الكباريه تسأل: "كم الساعة؟"

في البيت تسأل: "من أنا؟"

عند منتصف الليل،

وضعتْ قميصًا مطويًا على طرف السرير وقالت بابتسامةٍ بلا تلوين:

"نام... بكرا منفيق بكّير".

كان "نام" أمرًا صغيرًا،

لكنني شعرت أنه **وعدٌ بالحياة**.

رأيتُ على التسريحة عطرًا رخيصًا بقارورةٍ أنيقة،

وعلبة دواء،

ودبّوس شعر مكسور.

هذه مقتنيات **العابرين** حين يقرّرون البقاء يومًا إضافيًا.

أطفأنا الضوء.

من الغرفة المجاورة ارتجَّ مفتاح كهرباء،

ثم هدأت الشقة.

سمعتُ صوت المدينة يتنفس خلف الشباك:

ثمّة دمشق أخرى لا تحتاج كباريه لتكشف قلبها.

غمضتُ عينيّ،

وأنا أدرك—بوضوحٍ موجع—

أنني دخلتُ **مكانًا لا يعود صاحبه كما كان**:

بيتٌ يُعيد ترتيب قاموسي،

يفكّك نصائحي القديمة،

ويذكّرني أن الإنسان، قبل أن يكون "عميلًا أنظف" أو "رجلًا أحسن"،

هو فقط **كائن يبحث عن معنى صالحٍ للمبيت**.

وفي البعيد،

كان ظلّ مجدٍ يبتعد في شارعٍ آخر،

محافظًا على سرّه كما يحافظ المؤمن على صلاته:

لا يذكر المطربة بلسانه،

لكنها تصلّي في صدره بنبرةٍ لا يسمعها سواه.

تحت هذا الليل الهادئ،

علمتُ أن **المدينة قسمتْنا** برفق؛

لا خيانة، لا ضجيج،

بل اختياران مختلفان لشفاءٍ مؤقت:

هو يعود إلى الضوء الذي يفهمه،

وأنا أبقى هنا،

في بيتٍ خارج الضوء—

أسلّم جسدي للنوم،

وعقلي لأسئلةٍ لن تتوقف.

استيقظتُ على صوت **فيروز**،

كأن البيت يستعيد ذاكرة الطفولة فجأة.

كانت الساعة التاسعة تمامًا،

ضوء النهار يتسلّل على مهلٍ من بين ستائر بيضاء،

وأنا أسمع في الخلفية نغمة" *بكتب اسمك يا حبيبي*"

كأنها تصعد من أعماقٍ بعيدة أكثر من المذياع نفسه.

أصدرتُ بعض الأصوات،

حركة مقصودة كي يعرفوا أنني استيقظت.

فتحت باب الغرفة،

فرائحة القهوة ملأت المكان—

قهوة سميكة، من النوع الذي يُعدّ بإحساسٍ أكثر من المقادير.

كانت **فاتن** في الصالون،

تضع فنجانين على الطاولة،

تنتظرني بابتسامةٍ من النوع الذي يصعب تزييفه.

قالت:

"صباح الخير".

اقتربتُ،

فوقفت، طبعت قبلتين خفيفتين على خدّي وقالت:

"صباح النور... إن شاء الله نِمت منيح؟"

قلت:

"نِمت... نعم، نِمت".

قالت وهي ترفع نظرها عن الفنجان:

"وأنا من زمان ما نِمت وأنا حاسة بالأمان متل هالبارحة...

الأمان لما بيكون في البيت حدا هيك... وجوده لحالو بيطمن".

كلماتها كانت بسيطة،

لكنها خرجت من مكانٍ مملوءٍ بالخوف والوحدة.

سمعتُ صوت الارتعاش الخفيّ بين الحروف،

كأنها لا تصفني أنا،

بل تصف غيابًا طويلًا أخيرًا وجد له جسدًا يستقر فيه.

جلسنا نشرب القهوة.

كانت النظرات أكثر دفئًا من الحديث،

كأن الصباح يراقب نا ويبتسم.

قلت وأنا أضع الفنجان جانبًا:

"يلا... نلبس وننزل على المول، منخد الصغير معنا، بيلعب شوي، ومنفطر هناك".

نظرت إليّ وابتسمت تلك الابتسامة التي لا تقاوم:

"منشرب القهوة ومنطلع".

كانت تضحك وهي ترتّب شعرها المبلول قليلاً.

البيت بدا حيًّا بشكلٍ غريب—

كل زاوية فيه تتنفس.

حتى الصمت صار له ملمس،

كأنك تلمسه بأصابعك.

رفعت الهاتف، اتصلت بـ **مجد**.

كان صوته ناعسًا،

قال وهو يتثاءب:

"شو مفِيقك بكّير؟"

قلت مازحًا:

"فيروز... ورائحة القهوة".

ضحك وقال:

"لسّا المطربة ما فاقت".

ابتسمتُ في صمت.

قلت له:

"نحنا رايحين عالمول، منقعد نفطر سوا، تعا لهنيك".

ردّ بصوتٍ بدأ يستعيد طاقته:

"أوك... بشوفكن هنيك".

وأغلقت الهاتف.

فاتن كانت ترتّب أغراض ابنها الصغيرة:

لعبةٌ، زجاجة ماء، ومنديل مطرّز بخيطٍ زهريّ.

تتحرك بخفةٍ وهدوءٍ نادرين،

كأنها تكتب فصلاً جديدًا من حياتها بترتيب المائدة.

نظرتُ إليها،

وفي تلك اللحظة أدركت أن **المدينة التي كانت تلتهمنا ليلاً**

تُعيدنا نهارًا بشيءٍ من الحنان،

كأن دمشق تملك وجهين—

واحدًا يغري،

وآخر يضمّد الجرح بعد الإغراء.

لم أقل شيئًا.

لكنني شعرت أنني أعيش **أبسط صباحٍ في حياتي**،

وأنه — ببساطته—

كان أكثر صدقًا من كل ليالي الكباريه المضيئة بالزيف.

خرجنا من البيت معًا،

الطفل في المقعد الخلفي،

يضم لعبته الصغيرة ويتحدث معها كما لو كانت كائنًا حيًّا.

كان يضحك وحده بصوتٍ عالٍ،

وفاتن تلتفت إليه كل بضع دقائق لتصحّح له كلمة أو تردّ على سؤاله،

كأنها تحاول أن تثبّت العالم حوله كي لا يسقط مرة أخرى.

كنت أراقبه من مرآة السيارة—

وجهه الصغير، عينه الواحدة اللامعة،

تلك البراءة التي تذكّرك بأن الحياة رغم كل شيء

ما زالت قادرة على إنتاج ما يستحق الحب.

في المقعد الأمامي،

كانت فاتن مبتسمة.

ضحكتها تلك المرة لم تكن دفاعًا ولا قناعًا،

كانت ضحكة امرأة نسيت للحظةٍ أنها خائفة.

حتى أنا — وأنا أقود — شعرت بشيءٍ من الطمأنينة التي نسيتها منذ زمن.

وصلنا إلى المول،

كان **مجد** هناك في الانتظار مع المطربة.

كان وجهه مشرقًا على نحوٍ غير معتاد،

نضارةٌ غريبة تملأ ملامحه.

قال لي مبتسمًا:

"إلي زمان ما نِمت هيك".

قلت وأنا أبادله النظرة:

"وأنا كمان".

جلسنا في أحد المطاعم الصغيرة.

كانت الطاولات مرتبة بإتقانٍ بارد،

لكن جلستنا كانت دافئة على نحوٍ مربك.

مجد كان مختلفًا—

ينظر إلى المطربة بعينٍ لم أرها من قبل،

عينٍ فيها حنانٌ يشبه الأبوة وولهٌ يشبه الغرق.

يطعمها بيده،

يضحك إذا سخرت منه،

كأن كل ما فيه تسرّب نحوها بلا حذر.

راقبته بصمتٍ طويل،

كنتُ أتعجّب من هذا التبدّل المفاجئ.

مجد الذي علّمني الحذر صار هو الذي يفتح كل نوافذه دفعةً واحدة.

قلت في نفسي:

"ربما لكلٍّ منا طريقته في البحث عن الشفاء".

بعد الفطور، تجوّلنا في المول.

اشترينا أشياء كثيرة — بعضها مفيد، وبعضها بلا ضرورة.

كانت فاتن تضحك عندما يرى ابنها شيئًا جديدًا.

كنتُ أراقبها وهي تختار،

تسألني رأيي، ثم تفعل عكسه بابتسامةٍ صادقة.

ذلك النوع من النساء اللواتي يجعلن الخطأ يبدو أجمل من الصواب.

وعند المغادرة، قالت فاتن:

"أكيد المساء مو بالكباريه".

ضحكت المطربة وقالت:

"أكيد لا، بس عندي وصلة صغيرة وبالحقكن بعدها".

اتفقنا على اللقاء لاحقًا.

غادرنا أنا وفاتن والصغير،

وعاد مجد والمطربة بطريقٍ آخر.

في السيارة، كان الصمت ناعمًا.

دمشق في المساء تشبه امرأةً تخلع حليّها ببطء،

والشوارع تتنفس بخجل.

حين وصلنا البيت،

قالت فاتن بهدوء:

"بدي استحم... الحمّام جاهز إذا بتحب بعدي".

دخلتُ الماء،

شعرت كأن التعب القديم يُغسل عني طبقةً بعد أخرى.

حين خرجت، كانت الغرفة مرتبة بعنايةٍ بسيطة.

الفراش مشدود، الستائر نصف مغلقة،

والإضاءة خافتة بما يكفي لتشعر أنك في مكانٍ لا يطالبك بشيء.

قلت لها:

"بدي نام شوي قبل ما يجي المساء".

ابتسمت، ثم قالت بصوتٍ دافئٍ هشّ:

"فيني نام جنبك؟"

تردّدت لحظة، ثم قلت بهدوء:

"أكيد".

تمدّدت إلى جانبي،

مدّت ذراعيها حولي بخفّةٍ تشبه خوف الأطفال،

وسكنا معًا في صمتٍ لم أعرف له مثيلًا.

لم يكن في الموقف رغبةٌ أو حساب،

بل نوعٌ من **السكينة النادرة** التي تأتي بعد سنواتٍ من الهلع.

كانت أنفاسها تلفح وجهي برائحةٍ من حياةٍ أخرى،

رائحة الأمان حين يعود إلى مكانٍ لم يعرفه من قبل.

تلك اللحظة لم تكن انتصارًا ولا حبًّا كاملاً،

كانت فقط **هدنة** —

استراحة قصيرة في حربٍ طويلة مع الوحدة.

ومع كل نَفَسٍ منها،

كنتُ أدرك أن ما جمعنا لم يكن الصدفة،

بل الحاجة العميقة لأن نجد، ولو مؤقتًا،

مكانًا يمكننا أن ننام فيه دون خوف.

كان الوضع قد تغيّر تمامًا.

لم يعد بيني وبين **فاتن** ما يُسمّى بالمسافة،

ولا حتى ذلك التردّد الخفيف الذي يسبق أي اقتراب.

كل شيء أصبح أكثر دفئًا، أكثر حميمية،

كأن الليل الطويل الذي جمعنا ترك وراءه أثره في الضوء أيضًا.

استيقظتُ عند العاشرة.

كانت فاتن تقف أمام المرآة،

تلبس ثيابها بتركيزٍ يشبه طقسًا مقدّسًا.

قالت وهي تعدّل شعرها:

"يلا... عنا مشوار اليوم".

سألتها وأنا أرتدي على عجل:

"لمين؟ لوين؟"

قالت بابتسامةٍ واثقة:

"رح نروح على مكان حلو... بس خليه مفاجأة".

خرجنا من البيت.

كانت تمشي أمامي بخفة،

رأسها مرفوع، خطواتها ثابتة،

كأنها تعلن للعالم أنها لم تعد تختبئ.

في الحارة، كانت نظرات الجيران تتبعنا—

امرأة كانت بالأمس "امرأة الليل" تمشي الآن إلى جانب رجلٍ بوضوح النهار.

قلتُ بخجلٍ ساخر:

"عادي نمشي هيك؟"

قالت وهي تضحك:

"عادي... وكتير كمان".

كان في صوتها شيء من **التحرّر**،

كأنها تجرّب للمرة الأولى طعم الخروج بلا خوف،

طعم أن تكون **مع أحدٍ يراها ولا يشتريها**.

كانت منتشية، تمشي بثقةٍ غريبة—

خطواتها تشبه نغمة انتصار صغيرة في حياتها التي كانت كلّها هزائم.

ركبنا السيارة.

قلت:

"لوين بالضبط؟ بدي خبر مجد".

قالت بابتسامةٍ مفعمةٍ بالسرّ:

"عالقديمة... دمشق القديمة".

حين وصلنا إلى **باب توما**،

كانت المدينة تبدو كأنها تعود من صلاةٍ طويلة.

الحارات الضيقة،

الحجارة التي تشهد على مئات العشّاق،

الأبواب الخشبية الثقيلة التي تفتح على عطور الياسمين.

كانت دمشق القديمة تمتلئ بالحياة:

ضحكات، موسيقى، ناس تشرب،

فتيات يلتقطن صورًا،

ورجال يروون لأنفسهم حكاياتٍ قصيرة كي يقنعوا قلوبهم بأنهم بخير.

كانت تمسك بيدي كأنها تخشى أن تضيع.

قالت:

"هون بحس الدنيا إلها طعم تاني".

لم أجب.

كنت مأخوذًا بتفاصيل الوجوه في الشوارع،

بذاك المزيج الغريب بين الفرح المتعب والنجاة المؤقتة.

كانت الأزقة تضيق شيئًا فشيئًا حتى وصلنا إلى بابٍ خشبي عتيق

كتب عليه بخطٍ عربيّ جميل:

"قصر النرجس."

دخلنا.

المكان كان كأنك تعبر إلى زمنٍ آخر:

بيت دمشقي قديم، فناء واسع تتوسّطه نافورة صغيرة،

أرضيته مرصوفة بالحجر البازلتي الأسود،

ورائحة الزهر تفوح من الجدران.

جلسنا في ركنٍ مظلل بشجرة ليمون،

ضوء الشمس يمرّ من بين أوراقها كأنها ستارة سماوية.

قالت لي فاتن:

"بحب هالمكان، بحس فيو حنية... متل شي من الماضي".

كأنها كانت تتحدث عن نفسها—

امرأة فيها حنية سنينٍ مضت،

لكنها ما زالت تحاول أن تبدو صلبة.

بعد قليل، جاء **مجد**.

كان مرتاحًا، يضحك منذ اللحظة الأولى.

ضمّ فاتن كأخٍ يعرفها منذ زمن،

جلسنا جميعًا نطلب الطعام،

ثم بدأنا نشرب ونستمع إلى صوت المطرب الذي يغنّي على مسرحٍ صغير.

كان صوته يحمل شيئًا من حزن العشّاق الذين لم يكتملوا،

وكأن دمشق لا ترضى إلّا بالأغاني التي فيها وجعٌ جميل.

في تلك اللحظة،

نظرت إلى **مجد** وهو يضحك،

ثم إلى **فاتن** وهي تتابع الأغنية بعينين نصف مغلقتين،

وأحسست أنني أعيش مشهدًا من حياةٍ أخرى—

حياةٍ تملك ملامح السعادة،

لكنها تقف على حافة الخطر.

المكان كان مليئًا بالحياة،

لكن بين طيات ضحكاتنا كان هناك صمتٌ يعرف الحقيقة:

أننا جئنا جميعًا من عالمٍ مُنهك،

وأننا نحاول، كلٌّ بطريقته،

أن نُقنع أنفسنا أن هذا **النهار** حقيقي،

حتى لو كنا نعلم أنه سيذوب عند أوّل ليل.

كان المطرب يغنّي:

"رجعت الشتوية"...

وفجأة شعرتُ أننا كلّنا ننتظر تلك الشتوية،

ربما لأنها الستر الوحيد الذي يغطّي ما لم نستطع نحن ستره بأنفسنا

خرجنا من **قصر النرجس** والنهار يوشك أن يخلع عباءته الأخيرة.

كان في الجوّ شيء من النعاس والحنين،

ذلك المزاج الدمشقي الذي يجعلك تشعر أنك تمشي داخل ذاكرةٍ لا داخل شارع.

ركبنا السيارة،

مجد جلس في المقعد الأمامي، صامتًا للحظة،

ثم قال وهو ينظر إلى الخارج دون أن يلتفت:

"سامحوني... بدي روح شوف المطربة شوي، وعدتها بشيء".

كان صوته هادئًا،

لكن خلف هدوئه ظلّ شعورٌ بالهروب—

كأن في داخله أمرًا لا يريدنا أن نراه.

هززت رأسي موافقًا،

نظرت إلى فاتن فوجدت في عينيها لمعة فهمٍ صامت:

لا أحد يلوم أحدًا بعد الآن.

نحن جميعًا نعرف أن لكلٍّ منّا ظله الذي لا يمكنه الفكاك منه.

نزل مجد عند الزاوية،

لوّح لنا بيده واختفى بين الناس.

ثم أكملتُ القيادة ببطء،

والمدينة مزدحمة إلى حدّ يجعلها تبدو وكأنها تتنفّس بصعوبة.

وضعتُ أغنية لفيروز،

"سألوني الناس عنك يا حبيبي"...

كان صوتها يخرج من السماعات كأنها تتحدث عنّا نحن،

عن كل الذين حاولوا أن يبدؤوا من جديد،

لكنّ ماضيهم كان يجلس في المقعد الخلفي يراقبهم بصمت.

بسبب الازدحام كنا نسير ببطء،

نراقب العابرين على الأرصفة—

وجوه مجهولة لكنها مألوفة،

كل وجهٍ يحمل قصةً صغيرة تشبه قصتنا بطريقةٍ ما.

وفي نهاية الشارع المستقيم،

ظهر المبنى المألوف — **الكباريه**.

ذلك المكان الذي كان قبل أيامٍ فقط

مركز الكون بالنسبة لنا.

اللافتة لا تزال تلمع،

والأبواب نصف مفتوحة،

كأن الليل يتهيأ لابتلاع أرواحٍ جديدة.

مررنا أمامه،

كأننا مررنا أمام مرآةٍ مكشوفة.

لم نتحدث.

لم نحاول حتى النظر.

كلٌّ منّا يعرف أن نظرةً واحدةً قد تسحبنا إلى الوراء،

إلى ما هربنا منه بصعوبة.

تجاوزناه بصمتٍ ثقيل،

صمتٍ يشبه شعور الاعتراف دون كلام.

حتى صوت فيروز صار أبعد،

كأن الأغنية تخاف أن تُكمل.

هاتف **فاتن** بدأ يرنّ.

مرة، ثم مرتين، ثم ثلاث.

لم تُجب في البداية،

ابتسمت ابتسامةً باردة وقالت:

"ما في شي مهم".

لكن الرنين لم يتوقف،

كأنه يذكّرها بشيءٍ كانت تحاول نسيانه.

حين وصلنا إلى بيتها،

قالت:

"اصعد، بدّي روح عالصيدلية بسرعة، برجع فورًا".

صعدتُ إلى الشقة.

بدّلت ثيابي،

وقفت على **البرندا** أراقب الشارع من الأعلى.

كانت دمشق تتنفس من جديد بعد الزحام،

والليل يبدأ ببطءٍ كأنه متردد.

في الأسفل،

كانت فاتن واقفة تتحدث بالهاتف.

يدها اليمنى تتحرك بعصبية خفيفة،

ملامحها تغيّرت—

الوجه الذي كان قبل دقائق مشرقًا بالضحك

أصبح الآن متصلّبًا، كأنه يحارب شيئًا من الداخل.

لم أسمع ما قالت،

لكن نبرة جسدها كانت كافية لأفهم:

شيء من **الماضي** عاد.

عادت بعد دقائق.

نظرت إليّ، حاولت أن تبتسم،

لكني رأيت في عينيها ما هو أبعد من التعب.

سألتها:

"في شي؟ شو صاير؟"

قالت وهي تحاول أن تبقي صوتها ثابتًا:

"ترسّبات من الماضي... ما تهتم".

قالتها ببرودٍ مصطنع،

لكنني شعرتُ أن ما يسكنها أكبر من أن يُخفى خلف تلك العبارة.

كانت الجملة قصيرة،

لكنها فتحت في الجوّ نافذةً للقلق—

نافذة لن تُغلق بسهولة.

في تلك اللحظة،

فهمت أن الكباريه ليس مكانًا فقط،

بل فكرة.

حتى حين نغادره،

يبقى فينا شيء منه—

نغادر الباب،

لكن روائح الليل تبقى على أكتافنا،

وصدى الأغاني لا يغادر الأذن.

ربما كنا نظن أننا تجاوزنا كل شيء حين مررنا به دون أن نلتفت،

لكن الحقيقة أننا لم نفعل.

لقد مرّ الكباريه فينا،

لا نحن فيه

كنت أدرك تمامًا أن **فاتن** لم تكن تبحث عني بقدر ما كانت تبحث من خلالي عن **نفسها**،

عن ملامح امرأةٍ فقدت صورتها منذ زمن طويل،

امرأةٍ جرفها الخوف، وأكلها الشك،

ثم رمتها الحياة في أماكن لم تكن تشبهها.

كنتُ بالنسبة لها **جسرًا مؤقتًا نحو العافية**،

صورة رجلٍ يمكن الاتكاء عليه دون خوف،

لكنّي كنت أعرف أن الجسور المؤقتة لا تصمد طويلًا—

خصوصًا حين يكون الطرف الآخر قد تعلّم

أن **الثقة تساوي الألم**.

كانت تنظر إليّ بطريقةٍ فيها امتنان وريبة في آنٍ واحد،

كأنها لا تصدّق أن أحدًا يمكن أن يكون طيبًا دون مقابل.

وحين تبتسم لي،

كنت أرى في ابتسامتها ظلّ سؤالٍ لا يُقال:

"هل ستتركني أنت أيضًا؟"

فاتن كانت تحاول أن تعود إلى طبيعتها من خلالي،

لكنها كانت تبني الثقة على أرضٍ مهتزّة،

تضع حجرًا وتزيل آخر،

تفتح لي بابًا، ثم تغلقه بسرعة.

كنت أرى خوفها من عينيها،

ذاك الخوف الذي يجعل الإنسان يضحك كثيرًا كي يخفي الارتباك.

ومع الوقت، بدأتُ أنا أيضًا أتغيّر.

في البداية كنت أظنّ أن دوري بسيط—

أن أكون **الملاذ**.

لكن شيئًا فشيئًا صار ذلك الملاذ يختنق بي،

وصارت الحنانات الصغيرة تتحوّل إلى قلقٍ متراكم.

الهاتف...

ذلك الجهاز الصغير صار جدارًا بيننا.

رنّاته الكثيرة، إشعارات "واتساب" المتتالية،

الأسماء التي لا تظهر بالكامل على الشاشة،

الابتسامات التي تخفي شيئًا،

وهي تمسكه وتقول لي ببرودٍ مصطنع:

"مجرد أصدقاء قدام... ما تهتم".

كنت أحاول ألّا أرى،

أغمض عينيّ عمّا يظهر صدفة،

وأقنع نفسي أن ما يحدث **ترسّبات من الماضي** —

أنها فقط لم تتعلّم بعد كيف تطفئ ضجيج الأمس.

لكنّ داخلي كان يقول غير ذلك.

كان هناك شيء **ينبض خطأً**،

قلق مبالغ فيه،

كأنني أقف على حافة شيءٍ آخذ في الانهيار،

ولا أعرف من الذي بدأ بالدفع — هي أم أنا.

كنت أراقبها حين تنظر إلى الهاتف،

نظرات قصيرة، لكنها مليئة بالاستنفار.

كل نغمة جديدة كانت تُحدث في وجهها تقلّصًا خفيفًا،

تتبدّل ملامحها في جزءٍ من الثانية،

ثم تبتسم لتغطي الأثر.

لم أكن أحتاج إلى دليلٍ آخر.

كنت أعرف أن شيئًا **ينام في الظل**،

شيئًا لم يخبرني به أحد لكنه حاضر،

كحقيقةٍ غير معلنة يعرفها الجسد قبل العقل.

وهنا بدأ الخوف الحقيقي—

ليس خوفًا من الخيانة،

بل من أن أتحوّل إلى **واحدٍ آخر في سلسلة محاولاتها للنجاة**.

كلّما حاولت أن أقترب منها أكثر،

كلّما شعرت أن المسافة تتّسع.

كانت علاقتنا تشبه حقل ألغامٍ عاطفي—

كل خطوةٍ فيها قد تفجّر شيئًا قديمًا لا علاقة لي به.

كنت أحاول أن أكون الحاضر،

لكن الماضي كان يجلس بيننا على الطاولة،

صامتًا، واثقًا من قوّته.

كنت أقول لنفسي:

"هي ليست مذنبة... فقط مكسورة بطريقة لا أعرفها".

لكنّ هذا التبرير لم يكن يخفّف من القلق،

بل يزيده،

لأن القلق الذي لا تملك له سببًا

يصبح مثل دودةٍ صغيرة تنخر الإيمان ببطء.

وفي كل ليلة،

حين تضع هاتفها جانبًا وتستلقي قربي،

كنت أسمع الصمت بين أنفاسها،

ذاك الصمت الذي يشبه **مسافة لم تُقطع بعد**.

كنت أمدّ يدي إليها فأشعر أنها معي جسدًا فقط،

أما قلبها،

فما زال هناك — في مكانٍ لم يُسمّ بعد،

ربما عند مكالمةٍ لم تُغلق تمامًا،

أو رسالةٍ لم تُحذف من الذاكرة.

تدريجيًا،

بدأتُ أتحول من رجلٍ يطمئنها إلى رجلٍ **يخاف منها**.

صارت النظرات الصغيرة تثير فيّ شكوكًا كبيرة،

وصارت الكلمات العابرة تحمل أكثر مما تعني.

كنت أحاول أن أتمسّك بالحب،

لكن الحب، حين يتحوّل إلى مراقبة،

يفقد معناه،

ويتحوّل إلى نوعٍ من العذاب المتبادل.

كنت أقول في داخلي:

"لا أريد أن أكون سجّانها... لكنني أيضًا لا أريد أن أكون ساذجًا".

ومع كل محاولةٍ للسكوت،

كانت الأسئلة تتكاثر في رأسي مثل الحشرات.

من يكتب؟

من يتصل؟

ماذا تبقّى من الكباريه فيها؟

وماذا تبقّى مني بعد كل هذا القلق؟

في تلك الأيام بدأتُ أكتشف شيئًا مرعبًا:

أن الحب حين يدخل مرحلة **التحليل**، يموت.

حين تبدأ تقرأ الرسائل في وجه الآخر،

وتحلل نبرات صوته،

وتقيس الزمن بين رنينٍ ورنين—

فأنت لم تعد تحب،

أنت تحرس شيئًا يحتضر.

كانت فاتن تحاول أن تعود إلى طبيعتها،

لكنها لم تعد تعرف من هي بالضبط.

أما أنا، فكنت أحاول أن أكون المنقذ،

لكنني نسيت أن المنقذ إذا بقي طويلًا في الحريق

يحترق هو الآخر.

ذلك القلق الذي بدأ كهمسٍ خفيف

تحوّل إلى جدارٍ بيني وبينها،

جدارٍ شفاف لكنه صلب،

نرى بعضنا من خلاله،

لكن لا نقدر أن نلمس بعضنا كما كنا.

في تلك الليالي أدركت أن **السكوت لا يُصلح العلاقات**،

بل يربّي الوحوش في الظلام،

وأننا — رغم الحب، رغم الحنين، رغم الأمل—

كنّا نعود ببطءٍ إلى حيث بدأ كل شيء:

الليل، الكباريه، والخوف من الحقيقة.

الفصل الثاني والثلاثون: الانسحاب البطيء

أدركتُ حينها أن عليَّ **الانسحاب**.

لا صخب، لا مواجهة، لا بكاء.

فقط انسحابٌ بطيء، يشبه موت الضوء عند الغروب،

حين لا تلاحظ متى بدأ الظل يبتلع النهار.

لم يكن في الأمر بطولة،

بل **نجاة غريزية**، كما تفعل الحيوانات حين تشعر بأن الغابة لم تعد آمنة.

كنت أعرف أن فاتن لم تعد فقط امرأة تبحث عن طمأنينة،

بل صارت مرآةً لما لا أريد أن أراه في نفسي:

ارتباكي، خوفي، حاجتي الدائمة لأن أكون منقذًا في عالمٍ لا يريد النجاة.

رفعت الهاتف، اتصلت بـ **مجد**.

كان صوته واثقًا كعادته، لكنه متعب في عمقه،

كمن نام في مكانٍ لم يكن له.

قلت له بصوتٍ هادئٍ متعمّد:

"مجد، بدي روح عطرطوس".

سألني بعد لحظة صمتٍ قصيرة:

"ليش؟ شو صاير؟"

قلت له:

"ولا شي... بس لازم روح. في شغل لازم أخلّصه. جهّز حالك، بمرّ أخدك".

لم أمهله وقتًا للسؤال أكثر.

أنهيت المكالمة كما ينهي الطبيب نوبات العمل الطويلة.

نظرت إليّ **فاتن** من خلف الباب المفتوح.

كانت تضع الهاتف جانبًا،

وفي عينيها سؤال واضح لم تستطع أن تحبسه.

قالت بنبرةٍ حاولت أن تبدو عادية،

لكنها انكسرت في آخرها:

"بدك تروح؟ ليش؟"

قلت وأنا أرتّب أشيائي بسرعةٍ مقصودة:

"في شغل لازم أخلصه... ما رح طول، يومين تلاتة وبكون راجع".

ابتسمت، ابتسامةً فيها كل ما في الكذب من صدقٍ مؤلم.

قالت:

"رح أستنى".

لم أرد.

خرجت بسرعةٍ قبل أن أغيّر رأيي،

كمن يهرب من حريقٍ يعرف أن بقاءه فيه سيحرقه أيضًا.

حين وصلت إلى مجد،

كان في ملابسه الرياضية، واقفًا على الرصيف دون حقيبة.

قلت له وأنا أفتح باب السيارة:

"وين شنطتك؟"

ابتسم وقال:

"بخليها هون، راجع بعد يومين... شو القصة؟"

لم أجب فورًا.

قاد السيارة وهو ينظر إليّ من طرف عينه.

الطريق بين دمشق وطرطوس تلك المرة كان أطول من كل المرات السابقة،

كأن المسافة قررت أن تختبر صدق رغبتنا في الهروب.

قال لي بعد فترة صمت:

"احكي... شو في؟"

قلت له وأنا أحدّق في الطريق أمامي:

"ما في شي... وكل شي".

تنفست بعمقٍ ثم أكملت:

"هالجو مو إلنا يا مجد، ولا نحنا من ناسو.

ما لازم نضل نعيش كأننا أطباء لوجع غيرنا.

نساعد؟ آه. نحب؟ ممكن. بس ما لازم نتحوّل لجسور عبور.

كل مرة بنحمل حدا، بننزف نحنا".

ظلّ ساكتًا للحظات،

ثم قلت ما كنت أهرب من قوله:

"فاتن... الموبايل، الرسائل، الأصوات المخبّاية... كل شي رجّعلي إحساسي بالشك.

صرت أخاف من نظرتها، من سكاتها، من كل إشعار بيطلع عالشاشة".

ضحك مجد، ضحكة طويلة ومؤلمة في الوقت نفسه،

ضحكة من يعرف الحقيقة لكنه لم يكن يريد قولها.

قال لي بنبرة فيها مزيج من الواقعية والفلسفة:

"إسمعني... نحنا متعرفين ع بنتين من الكباريه، مو من كلية الطب.

هالناس يا صاحبي ما طلعوا من جرح، هني ساكنين جوّاته.

عايشين عمر بأجواء مريضة،

تخلّوا عن الثقة لأن الثقة عندهم كانت وسيلة للخذلان.

ما في شي اسمه شفاء سريع، في بس انتظار طويل ودوخة متكررة.

وإنت... إنت بدك تصحح حياة كاملة بكلمتين طيّبين؟ مستحيل".

كانت كلماته قاسية، لكنها صادقة.

كأنها مرآة لا تجامل.

ظلّ صوته في رأسي وأنا أنظر إلى الطريق،

والسماء الرمادية تمتد بلا نهاية.

قلت له بعد فترة صمتٍ طويلة:

"بس ما بدي أكمّل... ما عاد فيني. القرار أخدته، ما رح أرجع".

هزّ رأسه ببطءٍ دون أن يلتفت إليّ،

ثم قال جملةً بقيت ترنّ في أذني طويلًا:

"العالم كله هيك، يا صاحبي.

اللي بيدفع أكتر بياخد أكتر،

بالحب، بالاحترام، وبالأمان.

إنت بس كنت استثناء مؤقت،

وبتعرف، الاستثناء ما بيعيش كتير".

سكتنا بعد ذلك طويلاً.

الطريق إلى طرطوس كان يمرّ بين البحر والذاكرة،

كل موجةٍ تشبه محاولة نسيان فاشلة.

كنت أرى نفسي من الخارج—

رجلًا يقود سيارةً محمّلة بالخذلان،

يحاول أن يبدو متماسكًا،

لكنّ قلبه مملوء بالأسئلة التي يعرف أجوبتها مسبقًا.

لم يكن قرار الرحيل شجاعة،

بل **ضرورة**.

أحيانًا يكون الانسحاب أصدق أنواع البقاء.

لأنك حين تعرف أن المكان الذي تقف فيه بدأ يبتلعك،

فلا خيار أمامك سوى أن تمشي—

ولو نحو المجهول.

في مرآة السيارة الجانبية،

كانت صورة دمشق تبتعد ببطءٍ،

كأنها وجهٌ تعرفه جيدًا،

لكنك لا تملك الشجاعة لتقول له:

"وداعًا".

عدت إلى **طرطوس**،

لكن رأسي لم يعد معي.

كان يدور في دوامةٍ من الأسئلة لا تنتهي،

أسئلة حادّة، كأنها تُطرح بسكين لا بصوت.

هل أخطأتُ حين انسحبت؟

هل كنت أجبن من المواجهة؟

هل كانت هي المذنبة... أم أن الذنب للحياة التي صنعتها على صورتها؟

ولماذا، دائمًا،

تغفر الحياة للرجل كل شيء،

ولا تغفر للمرأة أي شيء؟

كانت الأسئلة تتكاثر في رأسي كأوراق محترقة،

كل واحدة تحرق التالية قبل أن أجد لها جوابًا.

الليل كان أطول من العادة،

والصمت أكثر قسوة من صوت الموسيقى في الكباريه.

كنت أستعيد تفاصيلها الصغيرة—

ضحكتها، ارتباكها، لمسة يدها،

ثم يهاجمني شعور الغضب،

كأنها جريمة أني أحببتها.

مضت الأيام ببطءٍ فاحش،

عدتُ إلى روتيني:

العمل، الطريق، القهوة، والبحر الذي لا يجيب.

كنت أحاول أن أعيش كأن شيئًا لم يحدث،

لكن كل شيء كان يذكرني بها—

حتى انعكاس ضوء الشمس على الزجاج كان يحمل ظلها.

في صباحٍ رماديّ،

رنّ الهاتف.

كان **مجد**.

قال بصوته المعتاد:

"وينك يا رجل؟ مختفي"!

قلت له ببرودٍ متعمّد:

"بالبيت".

قال وهو يضحك:

"افتح الكاميرا".

فتحت الكاميرا...

وصُعقت.

كانت الصورة واضحة:

مجد في دمشق،

يجلس على الأريكة،

وبجانبه **المطربة**،

وإلى يساره **فاتن**.

كانت تضحك،

نفس الضحكة التي كنت أظنها لا تخرج إلا لي.

تجمّدت.

مرّت ثوانٍ طويلة كأنها ساعات.

لم أقل شيئًا،

أغلق مجد الكاميرا بعد أن قال بنبرةٍ خفيفةٍ لا تخلو من السخرية:

"اشتاقتلك يا زلمة، تعا عالشام".

لم أقاوم.

ربما لأنني لم أكن أريد المقاومة أصلًا.

ركبت السيارة دون تفكير،

كمن يسير نحو الحريق وهو يعلم أنه سيلتهمه.

طوال الطريق كنت أقاتل نفسي:

"ليش رايح؟ شو ناطر؟"

لكن جسدي كان يعرف وجهته أكثر من عقلي.

وصلت دمشق عند المساء.

المدينة كانت كما تركتها—

مفعمة بالتناقض،

جميلة كجريمةٍ متقنة.

وصلت إلى بيت فاتن،

فتح الباب مجد بابتسامته القديمة،

المطربة تجلس على الأريكة،

وفاتن... فاتن استقبلتني كما لو لم يحدث شيء.

قالت وهي تقترب مني وتلمس وجهي:

"اشتقتلك".

تلك الكلمة التي كانت يومًا تُحييني،

صارت الآن تُؤلمني أكثر مما تُسعدني.

جلست،

لم أقل شيئًا،

ضحكنا جميعًا كما لو أننا لم نحمل في صدورنا شيئًا،

ثم غادر مجد والمطربة بعد ساعةٍ من الثرثرة الخفيفة.

بقينا وحدنا.

الليل كان صامتًا،

لكن ما بيننا كان يصرخ.

اقتربت مني،

وضعت رأسها على كتفي وقالت بصوتٍ متهدّج:

"بعرف إنك مشوّش، بس مو ذنبي. حياتي هيك".

كلماتها كانت كحجارة صغيرة تُرمى على سطحٍ ساكن.

نظرت إليها طويلاً ثم قلت:

"بعرف، مو ذنبك... بس كمان صعب عليّ.

مو سهل أكون رجل مؤقت،

أو دواء لمريض ما ناوي يشفى".

أغمضت عينيها،

كأنها ترفض السماع،

أو كأنها تعرف أني أقول ما لا تريد الاعتراف به.

سكتنا طويلاً.

كانت تمسك يدي بقوة،

كأنها تخشى أن أهرب من جديد،

لكن قبضتها كانت تحمل خوفًا لا حبًّا.

تسللت إليّ **الاختناق**.

ذاك النوع من الاختناق الذي لا يأتي من نقص الأوكسجين،

بل من فائض المشاعر الميتة.

قمتُ بهدوء،

ذهبت إلى الأريكة،

تمدّدت عليها كمن يعلن استسلامه.

جاءت بعد دقائق،

همست:

"تعال عالغرفة، نام منيح".

قلت دون أن أفتح عينيّ:

"هون مرتاح".

لم تقل شيئًا.

سمعتها تتنفس من بعيد،

ثم خطواتها وهي تعود إلى غرفتها.

في تلك اللحظة فهمت أن كل حبٍ يولد في العتمة

يموت عندما يرى الضوء.

وأن بعض النساء لا يبحثن عن رجلٍ ليحببنه،

بل عن رجلٍ ليشعرن عبره أنهن ما زلن على قيد الأنوثة.

وفهمت أيضًا أنني لم أعد أملك القدرة على الترميم،

ولا الرغبة في الإصلاح،

وأن الكباريه، حتى وإن غادرناه،

ما زال فينا—

بنوره الخافت، بأغانيه الرخيصة،

وبأوهام الحب التي تشبه الويسكي المغشوش:

تسكر،

لكنها لا تُشبع.

لليل في بيت فاتن لم يكن هادئًا.

كان ثقيلًا، يشبه النوم على صدورٍ ممتلئة بالندم.

رغم صمتي ورغبتي في الابتعاد،

كنت أسمع أنفاسها من الغرفة المجاورة—

ليست أنفاس امرأةٍ نائمة، بل أنفاس شخصٍ يحاول إقناع نفسه أنه بخير.

صباح اليوم التالي خرجتُ دون أن أودّعها.

كانت في المطبخ، بصوت فيروز يملأ الفراغ:

"أنا لحبيبي وحبيبي إليّ" ...

لم أنظر إليها،

لم أستطع.

تلك الأغنية التي كانت يومًا دفئًا صارت تذكيرًا مؤلمًا بأن الحب قد يصبح **عادةً من الذنب**.

في السيارة،

كنت كمن يقود بين حقل ألغام من الأفكار:

هل الرحيل هذه المرة نهائي؟

أم أنني، كما في كل مرة، سأعود متى اشتدّ البرد؟

لم أعد أعرف.

ما كنت متأكدًا منه فقط أني **تعبت من النجاة المؤقتة**.

عند مدخل طرطوس، اتصل بي **مجد**.

قال بصوتٍ مبحوحٍ من السهر:

"وينك؟ ناطر من الصبح، تعا نتمشّى عالكورنيش".

ذهبت إليه.

كان يجلس على مقعد خشبي، يرتدي نظارته الشمسية رغم الغيوم،

يمسك كوب قهوةٍ بلا سكر،

ووجهه يحمل مزيجًا غريبًا من السخرية والهدوء.

قال لي مازحًا:

"رجعت؟ ولا فاتن لحقتك؟"

ضحكتُ بلا رغبةٍ حقيقية في الضحك.

قلت له:

"رجعت، بس مو متأكد إذا فعلاً رجعت... في شي جوّاتي لسه هناك".

أشعل سيجارةً ببطء،

ثم قال وهو ينفث دخانها بثقةٍ تشبه اللامبالاة:

"تعرف شو المشكلة؟ نحنا منفتكر الحب دواء، بس هو مرض بمرحلة الكمون.

بينتقل باللمس، بالذاكرة، بالصوت... وما في مضاد إلو".

سكت، ثم أضاف:

"كنت مفكّره رح تطلع منها بسهولة؟ فاتن مو أنثى، فاتن حالة.

بس حالتها متقدمة، ومريض الحالة المتقدمة بيعدي".

نظرت إليه طويلًا.

مجد تغيّر.

شيء في روحه انكسر بهدوء.

ضحكته لم تعد خفيفة كما كانت؛ صارت ضحكة رجلٍ يعرف أكثر مما يجب،

وربما يعيش أقل مما يريد.

تحدثنا طويلًا،

عن فاتن، عن المطربة، عن الكباريه،

عن معنى أن تحب من لا يثق بك،

وأن تمنح نفسك لامرأةٍ تعرف أنها لن تبقى.

قال لي بنبرةٍ أشبه بالاعتراف:

"أنا كمان تغيّرت.

المطربة ما عادت مجرد مغنية... صارت مرايتي.

كل ما بشوفها، بشوف وجهي وقت كنت أضحك بدون ما أفكر.

اليوم صرت أضحك وأنا عارف إنها نكتة الحياة الأخيرة".

أشعل سيجارة أخرى،

نظر إلى البحر وقال:

"صدقني... نحنا مو أحسن منهم.

بس الفرق إنهم بيبعوا أجسادهم، ونحن نبيع أرواحنا... وما حدا يشتري".

تلك الجملة اخترقتني.

لأنها كانت الحقيقة العارية التي تجنّبناها طويلًا.

لم نكن ضحايا الكباريه،

كنا جزءًا منه،

نغادره كل ليلة بأجسادنا ونحمله معنا في صدورنا.

بعدها بعدّة أيام،

بدأت مكالمات فاتن تتكرّر من جديد.

ليست بكثرة، ولكنها كافية لتُبقيني مشدودًا إليها بخيطٍ من القلق.

أحيانًا لا أجيب،

وأحيانًا أردّ فقط لأسمع صوتها،

كمن يختبر ما إذا كان الجرح ما زال مفتوحًا.

كانت تتحدث كأن شيئًا لم يحدث:

"كيفك؟ اشتقتلك... إمتى جاي؟"

كنت أردّ:

"ما بعرف".

تضحك، وتقول:

"يعني رح تجي".

وهكذا كانت **العلاقة تترنّح** على حافة اللاعودة.

لا حبّ كافٍ لنبدأ من جديد،

ولا كراهية كافية لننهي ما تبقّى.

أما **مجد**،

فصار أكثر غموضًا يومًا بعد يوم.

يغيب ليالٍ طويلة،

يعود بعيونٍ تلمع، وكلماتٍ أقرب إلى الشعر الأسود.

صار يتحدث عن الموت بخفّةٍ لا تليق بعمره،

وعن الحياة كأنها تجربة فاشلة علينا أن نضحك منها قبل أن تضحك منا.

كنت أراقبه وأخاف عليه،

لكنه كان يضحك،

يقول لي:

"ما تخاف، أنا مو عم موت... أنا بس عم أتخلّى شوي شوي".

في تلك الأيام،

شعرت أن **كل شيء بدأ يتفكك** —

الحب، الصداقة، اليقين، وحتى فكرة العودة.

لم يعد هناك ما هو ثابت،

ولا من يستحق المواجهة.

كنت أنا وفاتن نغرق ببطءٍ في علاقةٍ بلا أرض،

ومجد كان يبتعد كقمرٍ يختفي تدريجيًا من سمائنا.

وكنت أعلم — في مكانٍ ما من داخلي—

أن القادم لن يكون نهاية القصة،

بل بدايتها الحقيقية.

لم أعد أراه كثيرًا.

كان **مجد** يغيب أيامًا،

ثم يعود فجأة كمن خرج من نفق طويل.

وجهه تغيّر؛

لم يعد فيه ذلك البريق الذي يشبه الربيع.

صار رماديًا،

كأنه يحمل على جلده بقايا دخان الكباريه الذي لم يُغسل بعد.

في البداية كنت أقول:

»يمكن تعب... يمكن بدّه راحة«.

لكنها لم تكن راحة.

كانت **رحلة سقوط بطيئة**،

رحلة رجلٍ يحاول أن يعيش بلا معنى،

ثم يكتشف أن اللا معنى نفسه يحتاج إلى طاقة لا يملكها.

صار يقضي لياليه في الأماكن التي كنا نهرب منها،

يجلس في الحانات الصغيرة على أطراف المدينة،

وحوله أصوات الكؤوس ووجوه الغرباء.

كنت أتصل به فلا يجيب،

ثم يرسل رسالة قصيرة بعد منتصف الليل:

"لسا فيني نفس، لا تقلق".

عندما كنا نلتقي،

كنت أجد في عينيه شيئًا جديدًا—

هدوء غريب، يشبه **هدوء ما قبل النهاية**.

لم يعد يتحدث عن المستقبل،

ولا عن أحلامه القديمة،

ولا حتى عن المطربة التي كانت تملأ يومه.

قلت له ذات مساء:

"شو صاير معك يا مجد؟"

ابتسم، ابتسامة خافتة وقال:

"ولا شي... بس اكتشفت شغلة بسيطة:

اللي بيحاول يفهم الحياة كتير، بينسا يعيشها.

وأنا تعبت من الفهم".

بدأ يتحدث بلغة جديدة،

لغة **اللاجدوى**.

صار يرى في كل شيء عبثًا جميلًا،

ويقول:

"كلنا عم نعيد نفس المشهد، بس بأدوار مختلفة".

كنت أراقبه وهو يتحول أمامي،

كمن يرى صديقه يُصاب بالجنون ببطءٍ نبيل،

لا بالصراخ، بل بالصمت.

في إحدى الليالي دعاني إلى مقهى قديم على البحر.

كان المكان شبه فارغ،

جلسنا نحتسي القهوة وهو ينظر إلى الأفق.

قال فجأة دون مقدمات:

"بتعرف شو الفرق بيني وبينك؟

إنت لسه بتخاف من النهاية... وأنا صرت أستناها".

قلت له:

"ما تحكي هيك، نحنا مرقنا بأسوأ من هيك".

هزّ رأسه وقال:

"لا يا صديقي، الأسوأ لما تكتشف إنك ما عدت تخاف.

الخوف بيحمي، بس اللامبالاة بتقتل بهدوء".

بعدها صار يختفي أكثر.

عرفت لاحقًا أنه ترك عمله،

وباع سيارته،

وصار يتنقل بين بيوت أصدقاء ومعارف.

حتى صوته في الهاتف تغيّر—

لم يعد فيه دفء،

صار مثل ورق مبلول بالمطر.

كنت أحاول أن أجرّه إلى الضوء،

أقول له نتمشّى، نروح، نغيّر جو،

لكنه كان يضحك ويقول:

"شو يعني نغيّر جو؟

الجو جوّاتنا، وين ما رحنا رح يلحقنا".

في إحدى المرات، جاءني فجأة إلى البيت.

كان متعبًا،

عيناه حمراوان من السهر،

لكن ابتسامته كانت ناعمة على غير العادة.

قال لي وهو يدخل:

"اشتقت لك يا زلمة... ما حدا بيفهمني غيرك".

جلسنا طويلًا بلا كلام.

ثم قال بصوتٍ منخفضٍ جدًا:

"بتتذكر أول مرة دخلنا الكباريه؟

كنا نفكر إننا دخلنا عالم غريب...

بس الحقيقة، نحنا كنا راجعين عالعالم اللي جوّاتنا".

تلك الجملة علقت في رأسي كرصاصة باردة.

كانت الحقيقة التي خفنا أن نعترف بها.

كل تلك الليالي،

كل النساء،

كل الضحك الزائف،

كانت مجرد **مرآة داخلية** نرى فيها خرابنا بأشكال جميلة.

في تلك الفترة بدأت أشعر أن مجد يسير نحو نقطة لا عودة منها.

ليس انتحارًا بالمعنى الجسدي،

بل نوعًا من **الانسحاب من الوجود**.

صار كلامه خافتًا، خطواته بطيئة،

وصار يعيش على الهامش،

كأنه يستعد للغيبوبة الكبرى التي تسبق الفقد.

كنت أراه أحيانًا على الكورنيش ليلًا،

يمشي وحده،

وعيناه على البحر كأنه ينتظر شيئًا منه.

ألوّح له من بعيد فيلوّح بلا حماس،

ثم يكمل طريقه،

كأن الموج هو الشيء الوحيد الذي بقي يفهمه.

ومع كل يوم،

كنت أكتشف أن الانفصال عن فاتن كان بداية النهاية لي،

لكن **سقوط مجد** هو نهايتي الحقيقية.

لأننا كنا مرآتين لبعضنا،

حين بدأ هو يتلاشى،

بدأتُ أنا أرى نفسي تختفي في عينيه.

كان مجد، في آخر لقاء بيننا،

يجلس بهدوءٍ غريب، ينظر إلى السماء ويقول:

"بتعرف شو المشترك بيني وبين البحر؟

اتنيناتنا نغرق الناس،

بس الفرق... البحر ما بيندم".

ضحك بعدها ضحكته الأخيرة.

ضحكة رجلٍ عرف متأخرًا أن كل ما حاول إصلاحه في الخارج

كان مكسورًا في داخله من البداية.

ذات صباح، غاب مجد كعادته.

لم يتصل، لم يرسل رسالة، لم يترك أثرًا.

ظننتُ أنه سهر ليلة أخرى في أحد الحانات ثم نام عند صديق،

لكن الغياب طال—

يوم، يومان، ثلاثة،

ثم أسبوع.

في اليوم الثامن، جاءني اتصال من رقمٍ مجهول.

كان صوته بعيدًا، مبحوحًا،

كأنّ الريح تتحدث لا هو.

قال ببساطة:

"أنا بالبحر".

صمتُّ.

لم أفهم بدايةً.

ثم أكمل بنبرةٍ تحمل مزيجًا من السخرية والراحة:

"طلعت بحّار على باخرة روسية، شغلي بسيط...

بس الأفق طويل، وما في ناس تسأل".

تخيلت وجهه في تلك اللحظة.

نظارته، ابتسامته الباهتة،

سيجارته التي لا تفارق أصابعه حتى في العاصفة.

قلت له:

"ليش؟ شو اللي خلاك تعمل هيك؟"

ضحك وقال:

"لأني ما عدت لاقي مكان ثابت.

اليابسة صارت ترفضني،

والماء... ما بيحاكم حدا، ولا بيطلب تبرير".

صوته كان يشبه الريح وهو تعبر النوافذ القديمة.

فيه تعب عميق، لكنه خالٍ من المقاومة.

كأنه أخيرًا سلّم نفسه للموج،

وقال له :*خُذني، أنا لك*.

بدأ يرسل لي رسائل صوتية قصيرة من البحر.

كلها متشابهة، لكنها مليئة بما لا يُقال.

مرةً قال:

"بتعرف شو أصعب شي؟

الليل بالبحر ما بينتهي.

ما في شارع ترجع منه، ولا ضو مطعم.

في بس سواد... وسواد جوّاتك".

وفي مرة أخرى:

"كنت مفكر البحر بيطهّر... بس هو ما بينسى شي.

كل شي بنرميه فيه بيرجع يطفو بطريقة تانية،

كأنه بيقول إلنا :*حتى الغرق مو نسيان*".

كنت أستمع إليه وأنا أشعر أني أفقده ببطء،

كما تفقد موجةٌ شاطئها عند الجزر.

لم يكن يهرب من أحد،

بل من نفسه،

من ذلك الجزء الذي لم يستطع يوماً أن يسامحه على ضعفه،

على حنانه، على انسانيته التي كانت تبدو جريمة في عالمٍ لا يرحم.

وفي إحدى الرسائل كتب لي:

"ما عاد بدي أرجع.

المدينة صغيرة، وأنا صرت أضيق من نفسي.

البحر كبير... بس يمكن حتى هو يملّ مني بعدين".

تلك الليلة لم أنم.

شعرت أني فقدت ظلي،

أنّ مجد، الذي كان مرآتي، قد أبحر بعيدًا بأجزائي التي لم أستطع الاحتفاظ بها.

شربت قهوتي وحدي،

وكنت أسمع في رأسي صدى ضحكته القديمة—

الضحكة التي كانت تملأ المكان بالحياة،

وصارت الآن تصدر من اللاسلكي البعيد، باهتةً كذكرى.

في الأيام التالية تغيّر كل شيء.

كنت أستيقظ فأفتح تطبيق الخرائط البحرية لأرى خطوط البواخر،

كأنّي أبحث عن نقطة زرقاء تحمل اسمه.

لم أكن أعرف أين تمامًا،

ولا متى سيعود،

ولا حتى إن كان يريد العودة.

وفي إحدى الرسائل القليلة الأخيرة، كتب لي:

"البحر يا صديقي ما بيغرق الناس...

هو بس بيستقبل اللي تعبوا من اليابسة".

ثم صمت.

ومنذ تلك الجملة،

انقطعت أخباره.

لا رسائل، لا مكالمات، لا إشارات من الموج.

كنت أخرج كل صباح إلى الكورنيش،

أجلس على المقعد الذي كنا نرتاده،

وأراقب الأفق كما لو أني أتوقع ظهوره من بين الغيوم.

أحيانًا أظن أني أراه،

ظلًّا بشريًا على حافة الماء،

يرفع يده ثم يختفي.

حينها فهمت أن **كلنا نغادر بطريقةٍ ما**،

منّا من يهاجر بجسده،

ومنّا من يهاجر بعقله،

ومنّا من يذوب في البحر منتظرًا أن يُعيده الموج في شكلٍ آخر.

ومجد...

لم يكن يبحث عن النجاة.

كان يبحث عن **الصمت المطلق**،

عن مكانٍ لا تسأله الحياة فيه لماذا أصبح بهذا الشكل.

ولعلّ البحر — وحده—

كان المكان الوحيد الذي لم يُجبره على الإجابة.

رنّ الهاتف،

رقم مألوف رغم أنه غاب عنّي شهورًا.

كان **مجد**.

أجبت بصوتٍ باردٍ، كمن يخاف أن يسمع الحقيقة:

"ألو؟"

جاء صوته كما تركته،

مبحوحًا، متعبًا، ملوّثًا برطوبة البحر:

"لسا بخير، متل ما تركتني. البحر كبر وأنا ما تغيّرت".

صمتنا طويلًا.

هو هناك، في مكانٍ بلا حدود،

وأنا هنا، محشورٌ داخل يومٍ يتكرر بلا ملامح.

قال لي بنبرةٍ فيها مزيج من الدعابة واليأس:

"كل شي واقف، حتى الموج بطّل يهاجمني.

صرنا متفاهمين، هو يهدأ وأنا أنام".

ثم أضاف:

"وإنت؟"

لم أجد جوابًا.

لأول مرة لم أملك ما أقول له.

قلت فقط:

"عايش".

ضحك وقال:

"كلمة قصيرة... بس مؤلمة".

ثم انقطع الاتصال،

كأن الموج قرر أن يبتلع صوته ثانية.

لم أعد أتابع أخبار **فاتن**.

لا صور، لا أصوات، لا فضول.

كأنها صفحة أغلقتها من كتابٍ قذر،

لكني لا أجرؤ على تمزيقه.

هي تعيش هناك، في عالمها الليلي،

تتبدّل الأضواء من حولها،

لكنها تبقى هي — عالقة في نفس الدور،

بين الجسد والخيال، بين اللذة والنجاة.

أما أنا،

فقد تحولت إلى **كتلة من الجمود**.

كل شيء داخلي ساكن،

كأن قلبي خزان ماءٍ راكدٍ لا يصل إليه الضوء.

الناس حولي يتحركون،

يضحكون، يحبّون، يتشاجرون،

وأنا... أراقبهم كمن يشاهد فيلماً صامتاً عن حياةٍ كان يعيشها يوماً.

كنت أخرج كل صباحٍ إلى المقهى ذاته،

أجلس على نفس الطاولة،

أطلب نفس القهوة،

أشعل نفس السيجارة،

وأحاول إقناع نفسي أنني **أحيا**.

لكن الحقيقة أني كنت فقط **أؤدي طقوس البقاء**.

في صباحٍ رماديّ،

كنت أسير إلى المقهى كعادتي.

كل شيء مملوء بنفس الرتابة التي جعلتني أكره الوجود.

حتى رائحة القهوة لم تعد توقظ فيّ شيئًا.

لكن عند باب المقهى،

حدث ذلك الخطأ الجميل الذي يبدّل مسار الحياة دون إنذار.

لمحتها.

غيداء.

كانت تقف عند النافذة،

تمسك كوبها بكلتا يديها كأنها تحاول أن تدفئ شيئًا ميتًا في داخلها.

وجهها هادئ،

لكن في عينيها شرارة صغيرة من التمرّد،

شرارة تشبه آخر قبس من نارٍ في نهاية معركة.

توقفتُ.

نظرت إليّ للحظة قصيرة،

نظرة لم تكن بريئة، لكنها لم تكن دعوة أيضًا.

كانت **اعترافًا صامتًا** بأننا من نفس الطينة،

من أولئك الذين احترقوا كثيرًا حتى صار الرماد مأواهم.

جلستُ بعيدًا،

لكنني لم أستطع التوقف عن النظر.

كان في ملامحها شيء لا يُفسَّر—

مزيج من **قسوة الحياة وجمال النجاة**.

كأنها وُلدت من النقيضين،

تعرف كيف تؤذيك وتضمّدك في الوقت نفسه.

لم نتحادث ذلك اليوم.

لم يحدث شيء.

لكنني، وأنا أخرج من المقهى،

عرفت أنني رأيت **نذرًا جديدًا**،

مقدمة لفصلٍ آخر،

أشدّ قسوة،

وأشدّ فتنة.

في طريقي إلى البيت،

كان صوت البحر يرافقني كعادته،

لكن هذه المرة لم يكن حزينًا.

كان كأنه يهمس لي:

"لم تنتهِ الحكاية بعد".

ابتسمت.

ربما لأنّي صدقته.

كنت أعلم أن **غيداء** ستكون العاصفة القادمة،

العالم الذي سيعيد ترتيب دمار فاتن ومجد في داخلي،

بطريقتها—

التي ستحرق،

ثم تُضيء.

بيروت 10-نوفمبر-2025

حقوق النشر والتصميم محفوظة

2025م

في زمنٍ تنوب فيه القيم كما تنوب المدن،
يسافر رجل وصديقه نحو دمشق،
فيجدان نفسيهما أمام مرآة الليل — الكباريه،
حيث تختلط الرغبة بالوحدة، والصدق بالخطيئة.
في ذلك المكان الموبوء بالبحث عن المعنى،
يكتشفان أن الإنسان لا يهرب من الحياة،
بل من صورته فيها.
من بين الدخان والموسيقى والعري،
تولد فاتن، امرأة نصفها ندم ونصفها نجاة،
ومعها يتشقق كل يقين، حتى يصبح الحب شكلًا آخر من التيه.

وحين يغيب مجد إلى البحر،
يبقى الراوي عالقًا بين الغفران والاشمئزاز من نفسه،
إلى أن تلوح غيداء —
كضوءٍ جديد في ليلٍ لم ينتهِ بعد.

«كباريه» ليست حكاية عن الليل،
بل عن الإنسان حين يواجه ذاته عارية...
دون موسيقى، دون عذر، ودون خلاص.

كباريه

ArabBook.Com
مكتبة الكتاب العربي